الباب الثانى

الأصول العامة لسيكلوجية أدلر

تمهيد

ولد ألفرد أدلر[1] ، فى إحدى ضواحى ڤينا فى السابع من فبراير عام ١٨٧٠ ، من أب يشتغل بالتجارة . وكان ألفرد ثانى عدة أخوة ، ضعيف البنية . أصيب فى طفولته الأولى بالكساح و بتقلص فى البلعوم . وفى سن الثالثة توفيت أمه وهى نائمة إلى جانبه فى فراش واحد . و بعد عام أصيب بالتهاب رئوى ، و يقال إن رغبته اتجهت منذ ذلك الحين إلى صناعة الطب .

ودهمته السيارات ، خلال صباه المبكر ، مرتين فى شوارع ڤينّا . وقد ذكر هو عن أمه أنها كانت تمتاز بالسذاجة وعطف الأمومة وأنوثة المرأة ، شديدة العناية والتفرغ لأطفالها الستة ، عاملة مجدة ، رزينة ، يغلب عليها حب الفكاهة ، سمحة ، صادقة ، حانية . ومع أنها لم تتلق من التعليم قدراً كبيراً ، إلا أنها كانت تناهز أباه فى العقلية . ومع أنها لم تكن فى مثل رقته و رفقه إلا أنها كانت فى الواقع أكثر منه إيثاراً وتضحية . وكان أدلر يفضل أباه لغيرته من أخيه الأصغر الذى كانت تكثر أمه من تدليله .

---

(١) مما قرأنا عن حياة أدلر كتاب طريف ألفته واحدة من أتباعه ، وطبقت فى دراستها له طريقته الخاصة ، ويبدو فى الكتاب سرفها الشديد فى الإعجاب به إعجاباً يصل إلى حد الوله

Orgler, H. *Alfred Adler : The Man & His Work.*

وله ترجمة أخرى شائقة هى :

Bottome, P. *Alfred Adler : Apostle of Freedom*

وكان أدلر كثيراً ما يصاحب أسرته إلى كثير من الحفلات الموسيقية ، ويطيل البقاء فى الحدائق علاجاً لكساحه . فأولع منذ حداثته بالزهر والموسيقى . وفى سن الخامسة ذهب إلى المدرسة . كان تلميذاً وسيطاً بصفة عامة ، لم يسعد فى المدرسة لأنه كان يخجل من قبح وجهه . وفى المدرسة الثانوية كان شديد الضعف فى الرياضيات حتى نصح أستاذه أباه أن يخرجه من المدرسة لعله يفلح فى صناعة الأحذية ، ومع هذا استطاع أدلر بعد ذلك أن يتفوق فى الرياضة لأنه كان يتميز دواماً بحضور بديهته .

ثم درس أدلر علم النفس والاقتصاد السياسى والاجتماع ، وأتم دراسة الطب فى جامعة ڤينا ، وحضر فى أثناء دراسته للطب جانباً من المحاضرات فى علوم الفلسفة والنفس ، وكان مولعاً خلال دراسته بالتشريح المرضى على الأخص .

وبدأ حياته العملية عام ١٨٩٨ طبيباً للعيون ، ثم اشتغل بعد ذلك طبيباً عامًّا . وكان شعوره بالعجز أمام الموت قويًّا إلى حد جعله يعزم على التخصص فى دراسة الأعصاب .

ثم تزوج فى أواخر القرن الماضى ، ثم عرف فرويد . وكان أدلر محبًّا للحياة الاجتماعية ، وعضواً فى كثير من المنتديات ، وله كثير من الأصدقاء .

والتحق بجماعة فرويد ١٩٠٩ ، لأنه كان مولعاً برأيه ، فتوفر على دراسة مذهبه ، حتى أصبح عضواً فى هيئة تحرير مجلته ، غير أنه استقال من تلك الجماعة ١٩١١ حين طلب إليهم فرويد أن يقبلوا نظريته عن الميول الجنسية قبولا مطلقاً . وكون أدلر مع سبعة آخرين الجماعة الحرة لتحليل النفس . وفى عام ١٩١٢ أطلق عليها اسم جماعة علم النفس الفردى .

وأغلقت الجامعة ڤينا دونه أبوابها ، فافتتح فى ڤينا عيادة لتوجيه الأطفال ، كان يقوم فيها بتقديم النصائح لمعلمى الأطفال الشواذ وأهلهم . وتعددت

تلك العيادات حتى بلغت ثمانية وعشرين فى ڤينا وحدها ، وكانت الاستشارات عامة ، يشهدها الناس جميعاً . حتى خلال الحديث مع الطفل ، مما كان موضعاً لكثير من النقد .

وفى ١٩٢٦ ، قام بإلقاء سلسلة من المحاضرات عن مذهبه فى بوسطن وشيكاغو وغيرهما من مدن الولايات المتحدة ، وعين أستاذاً فى جامعة كولومبيا ١٩٢٩ .

ومضى خلال السنين ٢٩ — ١٩٣٢ شهوراً يحاضر فى عدة مدارس للمعلمين ومعاهد التربية ، كما قام بإلقاء سلاسل من المحاضرات على الأطباء والجمهور . ثم دعاه عمدة برلين ١٩٣١ — ١٩٣٢ لإلقاء دروس خاصة فى مذهبه ، على مائتين من المعلمين ، ومائتين من الأطباء ، ومائتين من الأخصائيين الاجتماعيين استغرقت شهوراً .

وفى عام ١٩٣٢ استدعته كلية لونج ايلند الطبية حيث أنشىء له كرسى أستاذ فى الطب ، احتفظ به حتى وفاته فى ١٩ مايو ١٩٣٧ خلال زيارته لمدينة أبردين ، لإلقاء جانب من المحاضرات فى جامعتها .

وقد وضع أدلر مؤلفات كثيرة ، جانب منها باللغة الألمانية ، والآخر باللغة الإنجليزية ، وذاعت كتبه ذيوعاً كبيراً ، وترجم كثير منها إلى عدة لغات . أما مقالاته فقد تعسر على الحصر ، هذا إلى أن أكثرها يوجد فى الدوريات الآتية :

—Internationole Zeitschrift fur Individual psychologie. Hirzel, Leipzig.
—Individual Psychology Publications. Daniel, London.

ويمكن حصر كتبه فى الثبت الآتى :

ADLER, Alfred, *Studie ueber Minderwertigkeit von Organen.* (1907, Wien, & Berlin.) Translated as *A Study of Organ Inferiority and its Psychical Compensations.* (Nervous and Mental Disease Monograph Series, No. 24. New York, 1917.)

Ueber den Nervosen Charakter. Grundzüge einer vergleichenden Individual-psychologie u. Psychotherapie. (Muenchen, 1912). Translated as *The Neurotic Constitution. Outlines of a comparative Individualistic Psychology*

and Psychotherapy, by Bernard Gluck, M.D. and John E. Lind., M.D. (Kegan Paul, London, 1921.) Franch translation, *Le Temperament Nerveux*, Payot Paris 1926.

Praxis und Theorie der Individualpsychologie. (Muenchen, 1918.) Translated as *The Practice and Theory of Individual Psychology*, by P. Radin. (Kegan Paul, London, and Harcourt Brace & Co. New York. 1924.)

Das Problem der Homosexualitat. (Leipzig, 2nd edition, 1029.)

Menschenkenntnis. (Leipzig, 1921.) Tranlated as *Understanding Human Nature* by W. Béran Wolfe, M.D. (New York, 1927 George Allen & Unwin, London, 1928.)

Problems of Neurosis. A Book of Case Histories edited by Philippe Mairet, with an Introduction by F.G. Crookshank, M.D., F.R.C.P. (Kegan Paul, London 1929.)

Guiding the Child, by Adler and Associates. Translated by Benjamin Ginsberg, Ph. D. (George Allen & Unwin, 1930, and Greenberg Inc., New York.) (Reports on Work in the Viennese Child Guidance Clinics.)

The Education of Children. Translated by Eleanore and Friedrich Hansen. (George Allen & Unwin, London, 1930.)

The Science of Living. (George Allen & Unwin, London, 1939.

The Pattern of Life, edited, with Introductory Essay, by W. Béran Wolfe, M.D. (Kegan Paul, London, 1931).

What Life Should Mean to You, edited by Alan Porter. (George Allen & Unwin London, 1932.)

The Case of Miss R. The Interpretation of a Life Story. Translated by Eleanore and Friedrich Jansen. (George Allen & Unwin, London, 1929.)

The Case of Mrs. A. The Diagnosis of a Life Style. (C.W. Daniel & Co., London. Individual Psychology Medical Pamphlets, No. 1.)

Social Interest; A Challenge to Mankind. Translated by John Linton and Richard Vaughan. (Faber & Faber, London, 1938.)

Adler Alfred and Jahn, Ernst *Religionund Individualpsychologie.* Eine Auseinandersetzung. (Vienna, 1933).

* * *

وقد تشيع أدلر لمذهب فرويد وقتاً ما ، ثم انشق عليه كما انشق عليه غيره

---

* ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان « الحياة النفسية » ، بقلم الأستاذين بدران وعبد الخالق بك . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر

وبدأ يكون رأيه هو فى ما أطلق عليه اسم علم النفس الفردى[١] من دراسته للأمراض النفسية والعقلية . ومع أنه سلم بما يوجد من خطأ وصواب فى مذهب فرويد ، إلا أنه عارضه أول الأمر فى ثلاث مسائل أساسية رأى أدلر أنها خاطئة خطأ واضحاً :

أولى هذه المسائل اعتبار « الليبدو » [٢] الينبوع الأول والعلة العاملة فى توجيه السلوك كله . وأن انحرافه وحده هو الذى يسبب الأمراض النفسية بصفة خاصة بينما يؤكد أدلر : أنه وجد أن الغاية من كل مرض نفسى هى تمجيد الشعور بالشخصية الذى يظهر على أكثر أشكاله سذاجة فى مبالغة المرء فى إظهار الرجولة واعتزازه بكل ما يتصل بها من سمات ومميزات ، حتى تصير عبارة « أود أن أكون رجلا كاملا » هى الوهم[٣] الملح الذى يوجه سلوك الفرد جميعه . ولهذا الوهم فى حياة المصاب بالمرض النفسى قدر أكبر منه فى حياة الشخص السليم . أما « الليبدو » والميول الجنسية ، وأشكال الانحراف مهما تعددت واختلفت ، فإنها ليست سوى ملحقات تتعلق بأذيال تلك الفكرة الموهومة ، التى تسيطر على ذهن الشخص وتعمل فى توجيه نشاطه وسلوكه .

ويقول أدلر[٤] إن رأيه هذا هو عين الرأى الذى دعا إليه نيتشه من قبل عن « إرادة القوة » و « إرادة الظهور » ، كما أنه يقترب من ناحية أخرى من رأى فيريه وبعض المؤلفين السابقين ، الذين كانوا يقولون : إن الشعور باللذة إن هو إلا صدى وتوكيد للشعور بالقوة بينما يكون الشعور بالألم لوناً ناتجاً من الشعور بالضعف .

---

(١) اشتق أدلر اسم الـ Individual Psychology من اللفظ اللاتينى Individuum الذى يعنى حرفياً « غير المقسم » أو « ما لا يمكن تقسيمه » Individere ؛ ذلك لأنه يقول بوجوب دراسة الإنسان فى وحدته دراسة لا تتكامل إلا بالبحث فى مختلف نواحى شخصيته ومعرفة الظروف التى تحيط به .

(٢) « Libido » هو الجوع الجنسى والطاقة التى تصدر عن الغريزة الجنسية — وهو القوة الدافعة فى الحياة الإنسانية على رأى فرويد .

(٣) La fiction

(٤) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 14.

وثانية هذه المسائل التى يخطىء صاحبنا فيها فرويد ، هى التعليل الجنسى[١] للأمراض العصابية . وهى فكرة من الطريف ، كما يقول ، أن جانيه قرب منها حتى لمسها لمساً رفيقاً حين تساءل قائلا : « أترى يمكن أن يكون الإحساس الجنسى مركزاً تنشأ حوله كل التراكيب النفسية ؟ » ، ذلك لأن استخدام الصور الجنسية فى المجاز والتشبيه اللغوى كثيراً ما يؤدى إلى أن يخطىء كثيرون جداً من الناس ، والعصابيون منهم خاصة ، فى فهم المقصود من هذه الصور الجنسية ، بل كثيراً ما تفهم الصور الجنسية التى يتحدث عنها المتصوفة أنفسهم فهماً خاطئاً حتى كثر تأويل الناس لحديثهم عن اللذة والعشق والهيام تأويلا يخرج به عما وضع له . هذا إلى أن اللغة نفسها بما يوجد فيها من نزعة إلى تصوير الأفكار كثيراً ما تؤدى بالباحث إلى الوقوع فى شنيع الأخطاء . غير أن أدلر يقول إن عالم النفس لا يجدر به أن ينخدع بتلك المظاهر ، لأن المحتوى الجنسى للظواهر العصابية ، ينبع فى أساسه من المقابلة المجردة بين « الرجل والمرأة » وهو شكل معدل « للاسترجال »[٢] لأن الميل الجنسى يتخذ فى حياة العصابى وفى تفكيره غاية نهائية . هى الرجولة ، حتى ليمكن أن نقول ، إن تلك الغاية تصبح فى نفسه وسواساً ملحاً مقيما . ومن العجيب ، كما يقول أدلر أيضاً ؛ أن فرويد على دقة معرفته للرموز فى الحياة العقلية لم يدرك ما ترمز إليه الأفكار الجنسية عامة ، ولم يفطن إلى أن الصور الجنسية إن هى إلا رطانة ساذجة ، وأسلوب برىء من أساليب التعبير عن رغبات النفس .

والسقطة الثالثة فى مذهب فرويد ، كما يقول أدلر ، هى قوله : إن المرء يقاسى ضغط الرغبات الطفلية فى نفسه ، وخاصة الرغبات المحرمة منها ، التى تسبح فى عقله طليقة خلال الليل : (نظرية الأحلام) ، والتى كثيراً ما تظهر فى أثناء اليقظة

---

(١) L'étiologie وهو علم التعليل وفلسفته – ويقصد به هنا البحث فى أصول المرض .

(٢) Protestation virile

إذا ما واتتها الظروف وتهيأت لها المناسبات . كما يقول صاحبنا إن الحق أن الرغبات الطفلية نفسها، تخضع منذ وقت مبكر لضغط الغاية النهائية ، كما تحمل في طياتها طابع الفكرة الموجهة ، التى يمكن أن نقول إنها تنسرب بين شغاف النفس وتستقر فيها . وأنها تتخذ أشكالا رمزية تبعاً لحاجة العقل إلى القصد فى الجهد . وقد رأى فرويد فى تلك العملية الغائية بعثاً للرغبات الطفلية ، وقد لزمه ذلك القول منذ اللحظة التى نسب فيها إلى تلك الرغبات قوة دافعة محركة ، مع أن هذا العمل الطفلى ليس إلا وسيلة يصطنعها الناس ، والعصابيون منهم على الأخص . لتعظيم شعورهم بالشخصية وإقرار إحساسهم بالرجولة وتأكيده .

ذلك هو النقد المبدئى الذى وجهه أدلر إلى مذهب فرويد . وقد رأى أدلر أن يصلحه ، أو بمعنى أصح أن يقيم بدله سيكلوجية جديدة تقوم على عمد أربعة أولها دراسة قصور الفرد ، وما يتبعه من تعويض ، ثم الإيمان بأن الغائية هى التى تحكم قياد ذلك التعويض ، هذا كله إلى ما للجماعة وما بالنفس من ميل مفطور إليها من أثر فى توجيه ذلك جميعه .

الفصل الأول

القصـــور[1]

يبدأ أدلر مذهبه بتقرير المبادئ التى تقول بها « نظرية القصور العضوى »[2] فيقول إن تلك النظرية التى تتعرض لعلل القصور وطرائق النشاط التى تنتج عنه ، وتعرض لمظاهر الأعضاء القاصرة والتغير الذى يحدث فى وظائفها ، قد أدت به إلى تلمس ما يحتمل أن يقوم به الجهاز العصبى المركزى من تعويض عن ذلك القصور ، وأوحت إليه بمجموعة من الآراء عن « النشوء النفسى »[3] . فوجد نفسه أمام ارتباط عجيب بين قصور الأعضاء وبين « التعويض النفسى الزائد »[4] مما حدا به إلى أن يقرر هذا القول الأساسى : « إن الشعور بالقصور الذى يوحى به إلى الفرد أحد أعضاء بدنه ، يصير على الدوام عاملا فعالا فى نموه النفسى »[5]

ويقصد بقصور أحد الأعضاء : عدم استكمال نموه أو توقفه ، أو عدم كفايته التشريحية أو الوظيفية ، أو عجزه عن العمل بعد المولد . ويتعرض أدلر من ناحية أخرى لاستعداد العضو للنماء تحت تأثير عملية التعويض والارتباط ، وتبعاً لازدياد أهمية العضو الوظيفية . ويقول : إنه من الميسور أن نتأكد ، بملاحظة الأطفال أو

---

(١) عربنا لفظ Infériorité بالقصور لأن « قصره عن الأمر قصوراً وأقصر وقصر وتقاصر انتهى وعنه عجز وعى الوجع والغضب قصوراً سكن كقصر وقصر عنه تركه وهو لا يقدر عليه . . . » (المحيط) ونرى أن لفظ « القصور » خير من « النقص » الذى ينبغى أن نترجم به لفظ Incomplétude . هذا إلى ما فى لفظ القصور من دينامكية توافق رأى أدلر . كما أن النعت المشتق من لفظ القصور لا يؤدى إلى اللبس الذى يؤدى إليه ما يشتق من النقص .

(٢) Théorie de l'infériorité d'organes.

(٣) La Psychogenèse.

(٤) Surcompensation Psychique.

(٥) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 23.

بدراسة ذكريات الكبار[١] من أن وجود الأعضاء القاصرة يؤثر دائماً على حياة الشخص النفسية ، لأنه يحقره فى نظر نفسه ويزيد شعوره بعدم الأمن . لكن هذا الشعور بعينه ، هو الذى يلهب الجهاد لإقرار الشخصية ، ويثير فى المرء عراكاً رائعاً ، كثيراً ما يتخذ أشكالا من العنف تبلغ حداً متطرفاً لا ننتظره منه ، ويزيد تبعاً لزيادة مقدرة العضو القاصر على التعويض من ناحيتى الكم والكيف . إذ أن الصغير ذا الاستعداد للأمراض النفسية يغترف ، بشكل من أشكال الحدس . من شعوره بالقصور ، كثيراً من الوسائل التى تؤيده فى تعظيم شعوره بقيمته وقدره . . .

وكتب أدلر مفعمة بالأمثلة على ذلك : نذكر منها[٢] حالة رجل فى الخمسين من عمره أقبل على أحد الأطباء يشكو من أنه كلما صاحب شخصاً ما لعبور الطريق استشعر هلعاً شديداً ، خوفاً من أن تقضى عليهما العربات . أما إذا كان وحده لم يداخله أى خوف ، وأخذ فى عبور الطريق عبوراً متزناً لا خشية تأخذه منه . ذلك لأنه لم يكن يستشعر الخوف إلا على من يصاحبه فكان يمسك بذراعه ، ويدفع به تارة نحو اليسار وتارة نحو اليمين ، حتى يفسد على كل منهما الأمر وتكاد المنية أن تطأ كلا منهما من سوء تصرفه هو . فلما سئل هذا الشخص عن أقدم ما يذكر ، وصابره الطبيب وأعانه على ذلك . ذكر أنه كان يشكو الكساح وصعوبة الحركة فى سن الثالثة ، وأن العربات داهمته مرتين وهو يعبر الطريق . وهكذا كان من الهام عنده ، وقد أصبح رجلا ، أن يثبت أنه تغلب على ذلك الضعف . حتى ليمكن أن نقول إنه بسلوكه هذا يود أن يبين أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع عبور الطريق وأنه كان يلتمس الفرصة لذلك كلما صاحب أحداً من الناس . ومع أن القدرة على عبور الطريق أمر لا يجده كثير من الناس محلا للتفاخر ، إلا أنها مع مثل هذا المريض تتخذ وسيلة للزهو بسرعة الحركة ومهارة التنقل .

---

(١) L'Anamnèse وهو تاريخ المرض كما يسرد المريض قصته للطبيب .

(٢) Adler : *The Science of Living*, p. 123.

أما عن القصور العضوى وعلاقته بالأمراض النفسية فقد سلم به كثيرون قبل أدلر من الأطباء ومن غير الأطباء ، غير أن أحداً من أولئك — كما يقول — لم يفسر تلك العلاقة تفسيراً متكاملا معقولا . أما ما ذكره فرويد من أن الأمراض العصابية تنتج من تكوين البواعث المنحرفة ومن كبتها فى اللاشعور ، ومن أن هذين العاملين هما المحرك الأول لكل النشاط النفسى ، فيسهل تخطئته لأن الانحراف الذى يظهر فى الأمراض العصابية والنفسية إن هو إلا نتيجة ، لا للميول الفطرية ، بل للغاية النهائية الموهومة (١) ، كما أن الكبت ليس سوى نتيجة ثانوية لشدة الشعور بالشخصية . . . وليست الميول الجنسية الشاذة وألوان الانحرافات التى تتصل بها سوى تعويض زائد عن قصور أصيل فى الجهاز التناسلى .

ويتفق المؤلفون جميعاً فيما يتعلق بالاستعداد المرضى الذى يخلقه قصور الأعضاء : ويقول أدلر إن كل الخلاف بينه وبينهم هو أنه موقن من قدرة المرء على استعادة التوازن فى شخصيته ، كى يصل إلى التعويض الكافى عن قصوره . « فمنذ اللحظة التى ينفصل فيها الفرد عن بدن الأم ، تبدأ أعضاء جسمه والأجزاء التى لحقها القصور فى جهادها ضد العالم الخارجى ، وهو جهاد شاق جليل ، أشد وأقسى بكثير فى عنفه من الجهاد الذى تقوم به الأعضاء السوية . أما الضحايا التى تتهافت وتسقط فى ميدان هذا الجهاد فإن عددها يفوق بكثير جداً عدد جميع من تصرعهم نوائب الزمن وأحداث الحياة الكثر . . . ومع هذا فإن ألوان القصور التى قسمت عليهم تهيئ لهم قدرة كبيرة للتعويض ولما فوق التعويض وتزيد قدرتهم على التغلب على العقبات العادية والخارقة للعادة ، وتدفع بهم إلى تكوين كثير من الوظائف الجديدة وأشكال النشاط العالية . . . وعلى هذا المنوال تصبح الأعضاء القاصرة ينبوعاً لا ينضب من العناصر التى يستطيع الكائن الحى أن يعمل فى تحسينها والانتقاء منها ، حتى يستطيع أن يوفق بينها وبين ظروف الحياة التى أقبل عليها . فإن بلغ فى ذلك غاية كبيرة من النجاح كان ذلك نتيجة لمهارته فى

---

(١) Le but final fictif.

ترويضها ولقدرة الأعضاء القاصرة على التغير والتحول ولطاقتها الكبيرة التى تدفعها نحو النماء والزيادة ، يضاف إلى ذلك كله ما يؤدى إليه الانتباه والتركيز الداخلى من التقدم الكبير فى العقدة النفسية العصبية التى (١) تتصل بتلك الأعضاء » (٢).

وقد دلل أدلر ، على أن إصابة أحد الأعضاء بالقصور ، تلزم المسالك العصبية التى تتصل به ، كما تلزم الكيان النفسى ببذل جهد كبير من طبيعته أن يؤدى إلى تعويض تقوم به النفس فى الحالات التى يكون فيها التعويض ممكناً . وهى تلك الحالات التى تجد فيها الروابط التى تصل العضو القاصر بالعالم الخارجى تأييداً قوياً من وظائف النفس العليا . فإذا كان عضو الإبصار مثلا مصاباً بقصور أصلى ، قابلته بصيرة نفسية قوية ؛ وإذا كان الجهاز الهضمى مصاباً بالقصور ، كان مما يلازمه زيادة فى النشاط النفسى الذى يتعلق ويتصل عن قرب أو عن بعد بالطعام ، فتظهر هذه الزيادة على شكل النهم أو حب الكسب وجمع المال أو تشتد قوة فتصل إلى الادخار أو التقتير والبخل .

ويعيش الإنسان العصابى فى جو يعوزه الأمن والطمأنينة ، لأنه ممن قاسوا خلال مرحلة الطفولة ضغط القصور فى التكوين البدنى الذى يمكن الوثوق من وجوده فى أبدانهم فى أغلب الحالات . . أما فى الحالات الأخرى فإنه يتصرف كما لو كان مصاباً بالقصور — لكن تفكيره وإرادته ، فى كل ظرف وفى كل آن ، يعتمدان على أساس قائم على الشعور بالقصور ، وهو شعور نسبى ينتج إما من عدم توافقه مع الوسط الذى يعيش فيه ، أو من عجزه عن بلوغ الغاية العليا التى رسمها لنفسه . وذلك الشعور هو على الدوام نتيجة للموازنة التى يقوم بها الشخص بين نفسه وغيره ، مثل الوالد باعتباره أقوى أفراد الأسرة ، أو الأم ، والإخوة والأخوات أو أى شخص آخر يعرض له فى حياته غير هؤلاء .

ونلاحظ هنا ، عابرين ، أن أدلر بعد أن كان أول الأمر يلتزم حدود

---

(١) Complexe Neuro-psychique

(٢) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, pp. 27, 28.

القصور البدنى وما يستلزمه من تغير فى الحياة النفسية ، وبعد أن كان يتحدث عن الحالات المرضية التى تثبت منها الأطباء وعلماء الحياة ، فإن حديثه قد بدأ يعم حتى شمل القصور المعنوى أو الاجتماعى بل حتى شمل الحالات السوية أيضاً ، بعد أن كان يعرض عرضاً موضوعياً لحالات واقعية محدودة . .

قال إننا لو نظرنا عن كثب إلى الأطفال لاتضح لنا أنهم جميعاً ، وخاصة من لم تعن بهم الطبيعة ، يميلون ميلا شديداً إلى تحليل أنفسهم . إذ أن الطفل الذى لحقه أى قصور فى تكوينه ، وكذلك من تأخر نموه العقلى أو ظهر عنده الاستعداد للأمراض العصابية ، تبعاً لما قسم عليه من قبح الخلقة ، أو ما فرض عليه من تربية شديدة القسوة ، أو ما تمتع به من ألوان الملاطفة والتدليل ، كل طفل من هؤلاء يسعى أكثر من غيره للهرب من صنوف البؤس التى تفرضها عليه الحياة ملتمساً اللجوء والاستكانة إلى مستقبل يبعد أكثر ما يمكن عن القدر المحزن الذى يشعر أنه يتهدده . فيبدأ بتحليل نفسه أولا ، حتى يقدّر ما أصيب به من كوارث ، وحتى يتعرف مقدار ما هو منكوب به من ضعف ، وقصور ، وذلة . وحرمان من الدعة والأمن . فيكون ذلك أول نقطة يستوثق منها ثم يجهد بعد ذلك فى البحث عن سبيل يتوجه فيه فيقرر لنفسه نقطة ثابتة أخرى : هى الأب أو الأم . وينسب لهما كل الكفايات التى يسعها العالم بأجمعه . والصغير إذا ما اتخذ هذا المعيار لتفكيره ونشاطه ، كى يفلت من شعوره بعدم الأمن ، ويرتفع بنفسه إلى مرتبة الأب القادر على كل شىء ، بل إلى التفوق عليه إن استطاع ذلك ، كان فى ذلك بدء ارتحاله فى خطأ جريئة سريعة من عالم الحقيقة الملموسة إلى أحضان الخيال وسحب الوهم .

ويمكن أن نلمس شكلا مخففاً من هذا التفكير والسلوك إذا لاحظنا الأطفال الأصحاء ، إذ هم أيضاً مولعون بالعظمة والقوة تواقون إلى السيطرة « كالوالد » . وهم يشخصون بأبصارهم دواماً نحو تلك الغاية النهائية التى توحى لهم على الدوام أيضاً بطريقة السلوك ، وبأشكال النشاط البدنى والعقلى ، فيسعون دون شعور منهم إلى

تقليد الأب فى حركات البدن أو مظاهر النفس . وهكذا يظهر لنا أن « الإرادة ليست سوى البحث عن التعويض والجهد الذى يبذل لخنق الشعور بالقصور »[١].

كذلك ينبغى أن ندرك عن يقين ، أن الطفل منذ الساعات الأولى التى يخرج فيها من رحم أمه ، يجد نفسه فى موقف يبعث فيه العداء ، ويثيره إلى العراك ضد الوسط الذى يعيش فيه . وينتج من ذلك حالات التوتر ، ويبدأ جهاده لتعظيم كفاياته العضوية حتى لكأنه فى ميدان الوغى ولكأنه يقول « تلك هى ساحة الحرب » . وهكذا ينبغى أن نبحث ، فى ألوان الحرمان وأحاسيس الضيق التى يستشعرها المرء فى سنى طفولته الأولى ، عن نقطة الرحيل فى سلوكه وعن الينبوع الذى تصدر منه كثير من أشكال الخلق العامة ، التى تدفع الطفل وتبعثه نحو التعدى والكفاح .

بل إن الصغير إذا اتخذ موقف الخُلْفة والعناد ، وفشلت معه الجهود التى تبذل لتربيته وتهذيبه ، لم يكن ذلك منه فى كثير من الأحيان سوى إرضاء لحاجته إلى الشعور بالقوة ، ووسيلة يتخلص بها من شعوره المرير بالقصور . وقد يلجأ الطفل أيضاً إلى نقيض ذلك ، فلا نرى منه سوى ألوان الضعف وأشكال الاستكانة والخضوع حتى يستدر منا العطف ، ويضمن لنفسه رعاية من يحيطون به وحدبهم عليه ، فيكون له من تلك العناية التى تبذل نحوه ، مايبعث فيه الشعور بالسيطرة والقوة . وبذلك تكون الوقاحة أو رقة الحاشية التى تبدو من الطفل وسيلتين تضمنان له ، إلى حد ما ، شعور السمو بشخصيته ، وتعينانه على أن يشق لنفسه طريقاً يؤدى به إلى الغاية النهائية وهى الرجولة .

أما الشعور بالشخصية عند الأطفال المصابين بقصور فى تكوينهم ، فإنه يخضع عند ظهوره لنوع من الكبت . لأن الفكرة التى يكونونها عن قيمتهم تكون فكرة متواضعة محدودة ، تبعاً لضآلة حاجاتهم ؛ فما أكثر ألوان الحرمان والألم والأوجاع التى يقاسيها من يصاب من الأطفال فى أمعائه ؛ وما أقرب إلى

(١) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 32.

الأنوثة من يصاب منهم فى الجهاز التنفسى ، وما يتبع ذلك من صفرة فى الوجه ورقة فى البدن . وما أكثر ما يصاب به الأطفال من بثور والتهابات فى الجلد تبعث الذلة فى نفوسهم لخوف أهليهم من العدوى منهم ، وما يتبع ذلك كله من تأخر هؤلاء المساكين فى حياتهم المدرسية وتخلفهم عن التعليم . لهذا لا ينبغى أن نعجب إن اتخذ هؤلاء الأطفال ، فيما بعد ، حياة الوحدة والانفراد ، دون رفيق لهم أو صديق يخفف عليهم وحدتهم . وغالباً ما يواسى الواحد منهم نفسه ، بإلقائه تبعة ما يكابده على عاتق أهله الذين كانوا يكرهون ، كما يظن ، أن يقبل هو إلى هذا العالم لأنه دخيل عليهم فى حياتهم أقحم عليهم فيها إقحاماً .

ويختلط هذا الموقف العدائى ، الذى يثيره القصور الجِبِلِّى[١] ، اختلاطاً كبيراً بولع الأطفال أن يبلغوا من العظمة والقوة مبلغ أكبر العظماء وأشد الأقوياء . ويكون ذلك هو الجرثومة الأساسية للطموح ، الذى يستمسك به المرء طوال حياته سعياً وراء الأمن الذى يعوزه .

« ومن الخطأ أن نظن أن مثل هذه السبل فى التوجه لا توجد إلا فى نفوس المصابين بالأمراض النفسية ، إذ أن الرجل السليم نفسه ، لا يستطيع أن يشق لنفسه طريقاً فى هذا العالم ، إذا هو لم يحدد فى الصورة التى يرسمها عنه وعن حياته الخاصة ، مثل تلك الأوهام التى رأينا أنها تعتمد على تجاربه القديمة »[٢] . وتظهر تلك الأوهام على أقوى أشكالها فى أوقات القلق والاضطراب فتحدد أنواع العقائد والمثل العليا وتبين للفرد صنوف القيم المختلفة وتبعثه نحو — ما نظنه — اختياراً حرّاً[٣] وهى تعمل فى اللاشعور دواماً ، من وراء الستار ، لأن تلك الأوهام ليست سوى الصور اللفظية لما يجرى فيه من العمليات النفسية ؛ إذ يمكن أن تعتبر الأوهام من الوجهة المنطقية تجريداً أو تيسيراً لحل مشاكل الحياة عن طريق « التمثيل »[٤]

---

(١) L'infériorité constitutionnelle.

(٢) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 33.

(٣) Libre arbitre

(٤) Analogie

بينها وبين أبسط الأوضاع والوقائع .

وقد وحد فرويد بين تلك الأوهام وبين أهواء الطفولة وخيالاتها [١]، لكن أدلر خالفه فى ذلك معتبراً أن تلك الأوهام (الغائية) هى الينبوع الأول لهذه الأهواء والخيالات . وإذا كانت محاولات الطفل فى مقابلة المشاكل التى تعرض له تتميز بالطابع الساذج البدائى ، لأنها تعود به إلى مدركاته الأولى ، فينبغى ألا نعجب إذا ألفينا مثلها عند المتوحشين والبدائيين ، لأن كل المسائل الإنسانية تتطلب من الحلول ما يتفق والرغبة الملحة فى السيطرة . لهذا يرى صاحبنا أن الفروض الخيالية التى قال بها فرويد ويونج لإثبات التلازم بين نمو الفرد ونمو الجنس الإنسانى ، ليست فروضاً سطحية فحسب بل فروض باعثة على الوقوع فى الخطأ لأنه يرى أن كل فعل إنسانى ، على المعنى الواسع ، يظهر عند كل فرد على شكل إبداع جديد .

ثم إن المصاب بالمرض النفسى يشخص دواماً إلى المستقبل ولا يحفل بحياته الحاضرة إلا كإعداد لذلك المستقبل ، ولا يجد فى الحاضر إلا ما يدفع به نحو الخيال ويبعده عن عالم الواقع . شأنه فى ذلك شأن المؤمن الذى لا يوجد فردوسه فى هذا العالم ؛ وهو لا يستطيع مثله أيضاً ، أن يكفر بالإله الذى آمن به ، أو بالمثل الأعلى الذى فرضه على نفسه وهو الارتفاع بشخصيته وتعظيمها . ويتخذ فى سبيل ذلك كثيراً من أشكال السلوك التى يخيل إليه أنها تحقق مثله الأعلى ، كالمواظبة الدقيقة المضبوطة أو النظام الحازم الذى لا يهفو مرة واحدة ، أو يصبح أنانياً يجمع لنفسه كل شىء حتى يشعره ذلك بقدرته وسطوته . . إلى غير ذلك من الأشكال التى تتفاوت بين طرفين بعيدين هما الفضيلة السامية والرذيلة الوضيعة . ومن ذلك أن الشعور بالخطيئة مثلا ، والإغراق فى التقى والورع ، كبير الصلة على الدوام بالغاية النهائية التى يسعى نحوها العصابى وهى الجرى وراء السيطرة ، حتى لكأنه يحدث نفسه مزهواً فيقول : « إن لى أنا أيضاً ضميراً حياً » . وقد تصبح

---

(١) Fantaisies infantiles

التقوى والتكفير عن الذنوب أحياناً ذرائع يتهرب بها المرء من العمل ويتخلف بها عن الواجبات المفروضة عليه — ومن الواضح أن لهذا السعى الملح وراء وهم معين خطورة كبيرة من الناحية الاجتماعية ، لأن ما فيه من تطرف ومن مغالطة يعطل النشاط ويعرقل العمل والإنتاج .

والميول الجنسية من مقومات الشخصية وهى توجد فى الإنسان السوى وفى الإنسان العصابى على السواء . لكن هذه الميول الجنسية ، فى الأخير منهما ، تقوى وتتضاعف بتأثير الغاية النهائية ، « فالابتسار الجنسى »(١) والإسراف فى التعشق من الميول القوية التى تميز خلق العصابى . أما العادة السرية ، والعنانة ، والميول المنحرفة فإنها تنتج من الشعور بالخوف الذى تبعثه فى نفس الإنسان فكرة اتخاذ زوج له ، أو وجوب تقرير أمر ما ؛ فإذا اتخذ « السادية » كان يود بذلك أن يلعب دور الرجل المتوحش ، كى يخنق شعوره بالقصور ويخمده . إذ ليست السادية فى صميمها ، مثلها فى ذلك مثل كل الانحرافات الأخرى ، سوى ذريعة يتخذها الإنسان الرعديد الذميم ، للهرب من الأوضاع المألوفة المتعارفة والتردى فيما هو شاذ منبوذ لإقرار شخصيته وتعظيم شعوره بها .

تقوم القوة الدافعة إذن على الرغبة فى تعظيم الشعور بالشخصية والسمو بها ، وهى رغبة كثيراً ما تكون شديدة القوة كبيرة الغلبة ، بل رغبة جامحة تتغلغل جذورها عميقة فى الطبيعة الإنسانية . فإذا فحصنا عن كثب تلك الرغبة التى أطلق عليها نيتشه اسم « إرادة القوة » وأدركنا طرائق بيانها وظهورها ، استطعنا أن نوقن بسهولة ، أنها ليست فى صميمها شيئاً آخر ، غير القدرة على التعويض التى يصطنعها الإنسان للحصول على ما يعوزه من أمن داخلى .

والمرء يلتزم فى سعيه نحو هذه الغاية فكرة ثابتة معينة لا يصطنع فى تحقيقها غالباً سوى علاقات التقابل(٢) . وتتمشى هذه الطريقة فى التوجه مع

---

(١) Précocité sexuelle فى « أساس البلاغة » ابتسر الحاجة طلبها قبل وقتها وابتسر الجارية افتضها قبل الإدراك ، لهذا يخيل لنا أنه يمكن أن يقال إن الابتسار الجنسى هو طلب الجنس ونضج الميل إليه ، قبل ميعاده المألوف .

(٢) Rapports d'opposition

المقولات المتناقضة (١) عند أرسطو ، ومع أشكال التقابل عند فيثاغورس (٢) ؛ فيستمد المرء إدراكه وتفكيره من شعوره بعدم الأمن ويلجأ إلى حيلة منطقية ساذجة تقوم على مبدأ التقابل (٣) . غير أن هذا التقابل لا يكون تقابلا مستمداً من الأشياء فى ذاتها ، بل يخلعه المرء عليها من معان يصل إليها عن طريق الحدس ويعتمد فيها على الانتقاء والاختيار .

فإذا حللنا هذا الأسلوب من التفكير ، رأيناه يرتد إلى مقابلة تقوم بين الشعور بالقصور وبين الشعور بالعزة وعظمة الشخصية . ويلتصق بهذين الشعورين مقابلة أخرى بين العالى والواطى ، وبين المذكر والمؤنث : فيرتب المرء ذكرياته وتجاربه وأفكاره لا على المنوال الذى يسير عليه كافة الناس ، بل على المنوال الذى يستجيب لحالته هو ويتوافق مع شعوره . ومن أظهر ما يوجد فى العقل عندئذ المجموعات الآتية : قصور المكانة = تحت = نسوى : القوة = فوق = رجلى . فتعلق تلك المقابلات فى ذهن المرء ويضاعفها شعوره بالقصور وبالموقف المهين الذى يلزمه به الوسط الذى يعيش فيه .

ولا يستطيع المريض أن يتعرف على علة شعوره بالقصور ، فينسبه إلى أسباب عامة كضعف البنية ، أو قصر القامة ، أو صغر جهازه التناسلى ، أو الصفات النسوية التى يتسم بها والتى ينسبها إلى أهله أو أسلافه ، أو إلى سوء تربيته أو صنوف الحرمان التى كابدها فى صغره . . . ومن رأى أدلر أن التعرف على ذلك الشعور أو إخراج تلك الفكرة المكبوتة من اللاشعور ، لا فائدة لها من الناحية العلاجية (٤) بل يحصل فى كثير من الأحيان أن تتضاعف أعراض

---

(١) Catégories antithétiques

(٢) Tables d'oppositions

(٣) هكذا فى الأصل فى كتابه عن المزاج العصبى ص ٤١ ، وهو يقصد على الأرجح مبدأ التناقض فهو أكثر تحديداً وأدق تعبيراً عن رأيه .

(٤) يعارض أدلر بذلك طريقة فرويد فى العلاج التى تقول إن شفاء المريض يقوم على إخراج العقد الموجودة فى اللاشعور إلى ضوء الحياة الشعورية .

المرض ، وأن يوجه المريض حنقه ضد الطبيب الذى يخيل إليه أنه يجرح كرامته حين يحاول أن يوجهه فى سبيل غير السبيل الذى اختاره .

وصلنا مما تقدم إلى أن شعور العصابى بعدم الأمن هو الذى يدفع به فى أحضان الأوهام والمثل العلياوالمبادئ والأصول ، ويلزمه بالسعى عن سبيل يتوجه فيه . كذلك يبحث الإنسان السليم عن هذه الأمور ، لكنها لا تكون عنده سوى طريقة للتعبير [1] وحيل يستطيع أن يتميز بها السامى من السافل والحق ، من الباطل ؛ وهو يملك زمام أمره ملكاً يهيئ له أن يتخلص ، عند الضرورة ، من تلك الأمور المجردة حتى يعالج الحقائق الواقعة الملموسة التى يحفل بها . وأن يمحو من ذهنه سبيل التوجه الخيالى كى يتوافق تفكيره وعمله مع قوانين الحياة ومطالبها . فإذا هو اصطنع جانباً من الأوهام ، كان ذلك لما تجلبه له من نفع عندتطبيقها على مسائل حياته الواقعية . أما العصابى فإنه يتعلق بأهداب الوهم ، تعلق الطفل والبدائى ، فيجعل منه حقيقة ملموسة ويخلع عليه قيمة كبيرة ويسعى جاهداً نحو تنفيذه وإخراجه إلى حيز الفعل . لأن الرموز على شيوعها فى تفكير الناس وسيطرتها على اللغة ، لا تعتبر عندهم سوى طريقة للتعبير بينا يعتبرها العصابيون حقيقة ينبغى أن تتبع اتباعاً حرفيًّا .

ومما ينبغى إضافته إلى ما سبق : أن العصابيين ينحون إلى المقابلة دواماً بين الرجل والمرأة وينسبون القصور والضعف إلى الأنوثة ويحاول الواحد منهم أن يصل إلى الرجولة ويتخذ لذلك مظاهر تختلف بعضها عن بعض تبعاً لفكرته عنها ، ويتصل بذلك المقابلة بين الارتفاع والانخفاض ، فيضع الرجولة فى قمة المعايير التى يتخذها . ولعل العلة فى ذلك تعود إلى المقابلة بين الرأس والقدم فى بدن الإنسان من ناحية القيمة والأهمية ، وكذلك إلى موضع الرجل بالنسبة للمرأة فى العمل التناسلى .

لزم أدلر فى نظريته عن القصور العضوى — تلك النظرية التى أوجزناها

فى العرض السالف ألوان القصور الجبلّى، وما يتصل به من الأحاسيس النفسية التى توجه سلوك الفرد وتحدد سبيله فى الحياة منذ الطفولة الأولى ، وقد رأينا أن أدلر قد لزم فى ذلك الجانب أيضاً ما يمس نظريته وما يؤيدها من الناحية التقريرية التجريبية فوفق فى عرضه ، وكان ذلك العرض أقرب ما يكون إلى العلم ، وإلى ما يدعو إليه العلم من الاعتماد على التجربة والإيمان بالوقائع المستمدة منها . وُفِّق ، كما قلنا ، فى عرضه هذا توفيقاً واضحاً فى كتابيه عن « المزاج العصبى » وعن « علم النفس الفردى : نظرياته وتطبيقه » مع أنه كان ينزلق أحياناً نحو تعميم رأيه على الناس جميعاً .

ثم أسرف فى ذلك التعميم بعد هذا فلم يلتزم تطبيق نظريته على الحالات الشاذة فحسب ، بل أخذ يطبقها على الناس جميعاً وعلى كل ما يصدر عنهم من صنوف النشاط والتفكير فحشد فى كتبه الأخرى ، والموطأ منها على الأخص ،ما شوه رأيه وأفسد مذهبه . قال « إن ما يصدق على القصور العضوى، يصدق أيضاً على أى قصور اجتماعى أو اقتصادى يثقل كاهل الفرد ، فيضيق به ذرعاً حتى لا يرى فى الدنيا إلا خصما لدوداً . فيشعر الطفل منذ السنة الثانية من عمره أن شيئاً ما يعوزه فى عدته للجهاد مثل أترابه . يحس عجزه عن مشاطرة رصفائه فى اللهو واللعب ، ويتكون فى نفسه شعور بعدم رعاية أهله له ، وقسوة الدنيا عليه ، وإهمال غيره شأنه نظراً لما يلاقيه من ألوان الحرمان . . وينبغى أن نذكر أن كل طفل إنما يشغل من الحياة مركزاً وضيعاً ، وأنه لولا قسط من الشعور الاجتماعى يدفع أسرته إلى تقديم العون له ، لما استطاع أن يبقى على قيد الحياة مستقلا وحيداً. ويمكن أن نستوثق من أن مطلع الحياة عند كل امرئ مشوب على الدوام بشعور من القصور — قل أو كثر — لو نظرنا إلى ضعف الأطفال جميعاً، وقلة حيلتهم ، مما يبعث فى نفس الصغير يقيناً بعجزه عن الجهاد فى الحياة وحيداً . ذلك الشعور بالقصور هو القوة الدافعة ، وهو نقطة البدء التى يفيض منها نشاط الصغار عامة وهو الذى يرسم

لكل طفل ، ما يتطلع إليه من أمن ودعة ، ويعين له غاية حياته ويحدد له الهدف الذى يصوّب نحوه ، ويهيئ له السبيل الذى يسلكه حتى يصل إلى تلك الغاية »[١]

ولما كان كل طفل ينشأ بالضرورة بين ظهرانى الكبار ، كان من الحتم كما يقول أدلر ، أن ينظر إلى نفسه ، كمخلوق قليل الحول ، ضئيل الحجم ، عاجز عن الحياة بمفرده لا يجد من الثقة بنفسه ما يهيئه للقيام بأبسط الأمور دون خطأ أو عجز . ومما يوقر فى نفسه الشعور بالعجز وصغر الشأن أساليب التربية المختلفة التى تتفاوت بين التدليل وبين القسوة ، وبين اعتبار الصغير دمية حية ودرة غالية ينبغى رعايتها بالعين الساهرة ، وبين اعتباره دخيلا على الحياة غير مرغوب فيه . . بعض ذلك أو كله كفيل بأن يبعث فى نفس الطفل شعوراً رهيفاً بالقصور ، تزيده بعض أوضاع الحضارة المعاصرة وما يفرض عليه فيها من اصطناع أشكال اللياقة والتهذيب التى تبث فى نفس الصغير أنه كائن إذا تفضل الناس برؤية وجهه ، وجب ألا يسمعوا له نأمة أو صوتاً ، إلا أن يكون رقيق الحاشية ساكن الطبع موفور الخلق واللياقة والأدب .

هكذا يصل أدلر إلى أن يقرر « أن الشعور بالقصور موجود ، إلى حد ما ، فى كل إنسان ، لأننا جميعاً نجد أنفسنا فى ظروف وأحوال نرغب فى تحسينها »[٢]. ولا ينشأ هذا الشعور من الظروف التى تحيط بكل فرد على حدة فحسب ، بل يضاعفه أن الإنسان بالنسبة لغيره من الحيوان من أظهر الكائنات الحية ضعفاً وأشدها استكانة . . « لهذا ينبغى أن نذكر أن الشعور بالقصور ليس ظاهرة فردية فحسب ، بل هو إلى ذلك ظاهرة تعم النوع الإنسانى كله ، نذكرها حين تعود بنا الذاكرة إلى أسلافنا ، وقد تكأكئوا حول النار الموقدة ، تزأر حولهم الوحوش الكواسر وتزمجر ، فيتردد صدى زئيرها فى نفوسهم

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, pp. 69, 71.

(٢) Adler : *What Life Should Mean to you*, p. 51.

رعدة ووجلا »[١]. وانسرب هذا الشعور إلينا من أسلافنا لأنه مهما اختلفت البيئة أو ارتفعت قدرة الإنسان وأشكال الحضارة ، فلا شك « أن الإنسان من جهة نظر الطبيعة كائن محدود القدر وضيع القيمة ، لهذا كان الشعور بالقصور وفقدان الأمن شعوراً مقيما فى نفسه ، يحفزه دائماً للكشف عن خير الوسائل وأفضل الأفانين التى يستطيع أن يوافق بها بين نفسه وبين بيئته الطبيعية »[٢].

---

(١) Hoyland : *That Inferiority Complex*, p. 20.

(٢) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 29.

الفصل الثانى

الغائية

يرى أدلر أنه لو كانت الغرائز والقوى الفطرية هى التى تحكم وحدها قياد سلوك الفرد من كل ناحية ، لما كان فى قدرة المرء أن يعدل من شخصيته ، ليستجيب لما تتطلبه منه البيئة التى يعيش فيها إلا إلى حد محدود . ذلك لأنه من الواضح أن كل خصائص الفرد ، بل شخصيته بأكملها ، تتكون من الموقف الذى يتخذه إزاء البيئة منذ الطفولة المبكرة . ولا يمكن أن تتكون الشخصية وتنمو ، إلا إذا كانت النفس الإنسانية تتجه فى نشاطها اتجاهاً غائيًّا ، لأن الغاية التى يسعى نحوها الشخص، وينشط لتحقيقها، هى العامل الحاسم فى توجيهه .

ويقول أدلر إن علم النفس الفردى يختلف فى ذلك الرأى عن المدارس الأخرى التى تميل غالباً نحو التفسير الميكانيكى للنشاط الإنسانى ، فى أنه يصطنع « مبدأ الكلية » أى ينظر إلى الكائن فى مجموعه ، ويتتبع هذا المبدأ حتى آخر نتائجه ، موقناً أن الغائية تسيطر على النفس الإنسانية . فلم يعد يعنى خلال البحث فى العمليات العقلية بالتماس الجواب عن « لماذا » بل عن « إلى أين »[1].

فالحياة النفسية للإنسان تتحدد ، على رأى أدلر ، تبعاً للغاية التى ينحو الفرد نحوها؛ وينبع ذلك من حاجة الكائن الحى للتوافق مع البيئة التى يعيش فيها : « لهذا لا يمكن أن نتصور العقل الإنسانى نوعاً من المجموعات الأستاتيكية ،

(١) من خلاصة مقال لأدلر عن الفروق بين علم النفس الفردى والتحليل النفسى فى مجلة : Psychological Abstracts, 1929-712.

بل يمكن أن نتصوره فقط مجموعة معقدة من القوى المتحركة التى تصدر ، مع هذا ، عن علة واحدة ، وتجاهد لتحقيق هدف واحد . . . ولا يمكن إلا أن نتصور للحياة النفسية هدفاً تتجه نحوه صنوف النشاط التى توجد فى الحياة النفسية (١) » .

لهذا لا يبحث علم النفس الفردى فى أجزاء العقل أو النفس، بل فى العقل كله . ولا يهتم مثلا فى دراسة الإحساس أو الانفعال، بالعناصر الحسية أو الأصول الانفعالية أو الفسيولوچية ، بل بالهدف أو الغاية من الإحساس أو الانفعال . فإذا التمسنا فى أية ظاهرة نفسية ما يهيء لنا أى تفهم للشخص ، لم نستطع ذلك إلا إذا نظرنا إليها معتبرين إياها إدراكا لغاية معينة(٢) ، ذلك لأن المثل الأعلى للشخصية الذى يتخذه الفرد يبقى عاملا فعالا على الدوام ، ويحدد الاتجاه الذى يصطنعه الشوق أو الميل أو الانتباه ، ويلزمها على الدوام بالتصويب نحو أهداف عُينت من قبل . لأن الغائية التى تميز السلوك النفسى تحدد لمختلف ضروب النشاط الإرادى وغير الإرادى ، سبلا معينة ينبغى أن تسير فيها حتى تبلغ الهدف الذى عين لها . « وقد بلغت هذه الظواهر من الوضوح والجلاء حداً دفع بالفلاسفة والسيكلوچيين ، فى كل عصر ، إلى التسليم بتدخل مبدأ الغائية فى كل شيء ، حتى فى الأمور التى لا تتطلب سوى محاولة بسيطة للتوجه الإرادى المحدود نحو نقطة يعتبرها المرء ثابتة راسخة »(٣)

وإذا نحن تساءلنا عن مقدار الصواب فى إنكار أدلر لقانون العلية الذى بقى على مر الزمن كبير السطوة فى تفسير ظواهر الوجود جميعاً ، وفى إيمان صاحبنا وأتباعه بالغائية التى يودون أن يستخلصوا منها للفرد ، القدرة على انتقاء ما يود مما تعرضه عليه الحياة من مختلف السبل والوسائل ، لرأينا اليوم

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 19.

(٢) Adler : *The Practice & Theory of Individual Psychology*, p. 4.

(٣) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 76.

أن العلوم عامة ، لا علم النفس فحسب ، قد زاد اهتمامها بالغائية وقوى إيمانها بها بل لوجدنا « أن العلماء والفلاسفة فى الواقع ، قد كفوا اليوم عن مناهضة استخدام فكرة الغائية فى علوم الحياة »(١).

وقد أنكر أصحاب المذهب الحيوى الجديد(٢) ، من قبل ، كفاية العلوم الطبيعية والكيميائية لتفسير ظواهر الحياة وقرروا وجود قوة فى الكائن الحى تدفعه دائماً نحو غاية معينة . وقالوا إن سلوك الحيوان جميعه قريب الشبه بالنمو الحيوانى من حيث أن كلا منهما يتجه نحو تحقيق غرض خاص أو هدف معين . ولعلهم أول من قرروا أن المنفعة هى القانون الذى يتحكم فى كل مشاكل الحياة ، وقد وصلوا إلى رأيهم هذا من دراسة تطور الأجناس ونمو الأعضاء ومن دراسة العمليات البيولوجية فى البدن : حتى قرروا أن كل مظاهر السقم والأعراض المرضية ليست نتائج للعوامل المؤذية، بل هى أسلحة للقضاء على تلك العوامل . والمثل المأثور عن ذلك هو الالتهاب :إذ أن « الغرض» منه هو القضاء على الجراثيم الغازية المعتدية بوساطة تكثير الكرات البيضاء الموجودة فى الدم . وأثبتوا كذلك أنه لا يمكن فهم أى تغير بيولوجى إلا على ضوء الغرض الذى يؤدى إليه هذا التغير .

ويؤكد أدلر ، وهو لا شك متأثر بهذا النحو من التفكير رغم إنكار أتباعه لذلك ، أن كل الكائنات الحية تتميز بالحركة ، وأن كل حركة لا بد لها من هدف وغاية ، لهذا كان لكل كائن حى غاية يسعى نحوها . وفيما يتعلق بالإنسان خاصة ، يقرر أدلر أنه من المحال أن نفهم سلوكه وأعماله إلا إذا تعرفنا على الغاية التى يسعى نحوها .

ويقول أدلر : « إننا لو نظرنا إلى الأمر عن كثب ، لوجدنا أن القانون الآتى يتحكم فى سير كل الأمور النفسية : وهو أننا لا نستطيع أن نفكر أو

---

(١) Parodi : *Les Bases Psychologiques de la Vie Morale*, p. 3.

(٢) Néo-Vitalisme.

نشعر أو نريد أو نعمل دون إدراك لهدف ما . إذ لا تكفى ، حينذاك ، كل قوانين العلية فى العالم لقهر عماء المستقبل ، أو للتغلب على ضربنا فى الحياة على غير هدى . ذلك الضرب الذى قد نقع فريسة له عندئذ ، فيبقى كل فعل فى مرتبة المحاولات التى لا ضابط لها ؛ ونعجز عن الحصول على ذلك الاقتصاد الواضح فى حياتنا النفسية ، كما نبقى دون أن تتكامل شخصياتنا حتى لنشبه فى كل مظاهر البدن وفى كل لمحة شخصية تلك الكائنات التى تعتبر فى مرتبة الأميبا »(١).

كان الناس يتساءلون من قبل عن علة سلوك الفرد ، وكان البحث عن العلل أهم مباحث علم النفس ، وكان الناس يحاولون فى مطلع البحث السيكاوجى العثور على تفسير مادى ميكانيكى لأفعال الإنسان جميعها ، ولقيت النظرية السلوكية خاصة ترحيباً كبيراً ، لما كانت تقول به من أن الآثار تنتقل خلال البدن عن طريق الحواس ، ثم ترتد من الأعصاب والمخ نظماً من ردود الأفعال يؤديها الإنسان راغما ملزماً . ثم بدأ الناس يتحللون من هذه النظرية . وأنكر فرويد أن الأعمال الإنسانية محكومة بوساطة القوانين المادية ، وقال بضرورة التعرف على قوانين نفسية صرفة تسيطر على أعمال الإنسان وتنظم سلوكه . لكن قانون العلية خدعه هو أيضاً ، فدفع به إلى النظر فى الماضى فحسب ، يلتمس فى طياته تفسيراً للأعمال الإنسانية على مختلف ألوانها ؛ وأعلن أن التجارب النفسية السابقة لا تذهب ولا تبلى بل تبقى مقيمة فى النفس ، وتحتضن من صنوف الطاقة ما ينبغى أن يعتبر العامل الدافع فى الحياة الذى لا بد أن تصدر عنه ، بالضرورة ، نتائج معينة فى التفكير والسلوك .

ولو تركنا التعميم الفضفاض الذى قال به فرويد ، وقصرنا النظر على رأيه القائل بأن الأمراض النفسية تنتج من نشوء الميول المنحرفة ومن فشل المرء فى كبت هذه الميول فى اللاشعور . وعلى اعتباره أن هذين العاملين هما

(١) Adler : *The Theory & Practice of Individual Psychology*, p. 3.

المحرك الأول[١] لكل النشاط النفسى للمريض ، لرأينا أن أدلر ينقده فى هذا أيضاً ويقول : « إن الانحراف كما يظهر فى كل من الأمراض النفسية والعقلية لا ينتج عن الميول الفطرية ، بل عن غاية نهائية موهومة ، كما أن الكبت ليس سوى نتيجة ثانوية تظهر تحت ضغط الشعور بالشخصية »[٢]. وسلوك العصابى ، على رأيه ، يتجه اتجاها مضبوطاً دقيقاً نحو الهدف الذى يرسمه لنفسه ، لهذا كان واجب عالم النفس وواجب طبيبها ، أن يتفهم هذا السلوك ويتعرف عليه ، أى أن ينعم النظر فى الأعراض المختلفة وفى أشكال الخلق حتى يكشف عن الغاية منها .

غير أن أدلر ، على شدة دعوته إلى الغائية ، قد حاول فى مواضع قليلة ، لعلها غابت عنه وعن أتباعه ، أن يوفق بين الغائية والعلية . من ذلك أنه ارتأى أن بالميول العصابية لمحات مخبوءة فى أصولها وفى الغاية منها على السواء ، وأيد رأيه هذا بنظرية برجسون فى الحركة بصفة عامة « لأننا لو أوتينا من المعرفة والخبرة قدراً كافياً ، لاستطعنا أن نكشف فى كل ظاهرة نفسية ما تتضمنه من الماضى والحاضر والمستقبل وأن نتعرف على الغاية التى تسعى نحوها »[٣]

---

(١) Primum Movens.

(٢) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 27.

(٣) هامش صفحة ٢٨٥ فى كتابه عن « المزاج العصبى » .

ومن المعروف أن برجسون بعد أن نقد السيكلوجية الآلية التى قال بها ستيوارت ميل وتين ، وبعد أن استعرض فى الفصلين الثانى والثالث من كتابه Essai Sur les Données Immédiates de la Conscience وفى كل كتابه Matière et Mémoire الاعتراضات التى تدحض تفسير الظاهرات النفسية تفسيراً يقطع أوصالها إلى جزيئات منفصلة ، تجمعت بعضها إلى بعض ، وبعد أن نقد (كما يقول Le Roy فى كتابه « فلسفة جديدة » ص ١٦٨) تلك الفلسفة النحوية التى تؤمن بأن الحقيقة مكونة من قطع يمكن تعدادها كما يتكون القول من ألفاظ متجاورة ، وبعد أن نقد الفلسفة المادية التى تخطىء باصطناعها قوانين علوم الطبيعة فى علوم النفس — رأى برجسون أنه ينبغى أن نتصور الشعور متغيراً فى مجموعه . كذلك قال إنه إن تحددت بعض حالاته بما يسبقها فإن ما للشعور من الاختيار ، يهيىء له أن تظهر حالاته المقبلة ، على شكل إبداع جديد . فإذا قلنا بالعلية السيكلوجية ، لزم ألا نفهمها على منوال العلية المادية ، لأن تلك تتضمن ، على نقيض هذه ، أنه لا تتشابه لحظتان اثنتان فى اثنتان فى الشعور ، لأن فى المرور من الواحدة إلى الأخرى إبداعاً طريفاً .

لكنه مع هذا يلح على الدوام فى تأكيد أهمية الغائية وحدها ، ويفسر كل ظواهر الحياة النفسية تبعاً لذلك على أنها إعداد لبعض المواقف المقبلة ، حتى لكأنه من غير المحتمل أن نرى فى النفس سوى قوة تعمل نحو غاية . ولهذا ينظر علم النفس الفردى إلى كل ما يصدر عن النفس الإنسانية كأنه موجه نحو هدف معين[١].

(١) Adler : *Understadingn Human Nature*, p. 20.

الفصل الثالث

التعويض

رأينا من قبل كيف عرض أدلر للقصور العضوى وما يلازمه من تغير فى الحياة النفسية ، وكيف أنه أقام نظريته أول الأمر على هذه الحقائق الموضوعية ، ثم عممها على ألوان القصور جميعها ؛ وأغرق فى ذلك حتى قال إن الشعور بالقصور يوجد فى نفوس الناس جميعاً ، السوى منهم والشاذ على السواء، وقد ذكر « أن الشعور بالقصور ليس فى نفسه أمراً شاذاً ، بل هو العلة فى كل تقدم وصل إليه الجنس الإنسانى ، بل إن العلم نفسه ، مثلا ، لا يمكن أن يقوم إلا إذا استشعر الناس جهلهم وحاجتهم لكشف حجب المستقبل ، وهو نتيجة تشوق الناس لتحسين حالهم ولزيادة معرفتهم بالكون وسيطرتهم عليه . حتى أنه ليخيل إلى أن كل الثقافة الإنسانية تقوم على الشعور بالقصور. . » [1] كما قال إن الناس بما ينشئون من جماعات ، وما يقيمون من نظم ، وما يبذلون من جهد لتأمين حياتهم بما يشيدون من دور أو يصنعون من ملابس أو يشقون من طرقات . . . ليبعثون فى النفس اليقين بأنهم يشعرون أنهم أضعف من يدب فى هذا العالم . وأكد أن الناس حقاً هم أضعف الكائنات الحية من بعض الوجوه، وأن صغارهم خاصة شديدو الضعف ، ولا بد من العناية بهم والعمل على رعايتهم مرحلة طويلة فى أول الحياة .

نود أن نربط ذلك بفكرته عن اتصال الحركة واستمرار الزمن . وعن تواصل الحياة النفسية خاصة : تنبع من الماضى ، لتحيا فى الحاضر ، متطلعة

(١) Adler : *What Life Should Mean to You*, p. 55.

نحو المستقبل ، تسعى سعياً حثيثاً نحو غاية تجذب النشاط وتبتعث العمل الدائم للوصول إليها . هذا إلى جنوحه دائماً إلى تمجيد العلة الغائية وإيمانه بأنها الباعث الأهم لكل صنوف النشاط فى الحياة النفسية ، تلك العلة الغائية التى نستطيع أن نفهم على ضوئها كل أشكال الخلق ومظاهر السلوك .

يضاف إلى ما تقدم إيمانه « بفلسفة كأن »[1] واعتقاده بأن كثيراً من الأفكار ليست فى الحقيقة إلا نوعاً من القصص أو الأساطير يعمد العقل إلى خلقها ليستعين بها على حل المشكلات التى تعرض له ، وأنه يتخذ الرموز ، بعد أن كانت طريقة للقول ووسيلة للتعبير ، غاية فى نفسها يندفع المرء إلى تحقيقها ويعمل على الوصول إليها .

أخرج أدلر من هذا جميعه مزيجاً يقيم عليه نظريته فى التعويض ، فرأى أن الشعور بالقصور يدفع الإنسان ، منذ صغره ، إلى البحث عما يضمن له الأمن ويخفف شعوره بالذلة والضعة ، واعتمد فى إثبات رأيه هذا على ما يحصل فى العالم العضوى ، قائلا إن من الحقائق المعروفة : أن أعضاء البدن الأساسية للحياة تزيد فى النمو ، وتجيد أداء وظيفتها ، إذا أصيب جزء منها ، أو جانب من الأعضاء الأخرى التى تتصل بها ، بما يعوق عمله : ففى أمراض الدورة الدموية تزيد قوة القلب ويتضاعف عمله ، حتى يصبح أكثر قوة وأوفر كفاية من القلب السوى . كذلك إذا أصيبت إحدى الرئتين أو الكليتين وتعطلت عن العمل ، قامت الأخرى بعمل الاثنتين وزيادة .

---

(١) كثيراً ما يستشهد أدلر بالفلسفة التى قال بها Vaihinger ، والتى تعرف باسم فلسفة كأن « The Philosophy of As If » . وهى مزيج من فلسفات مختلفة أهمها فلسفة كونت Comte الوضعية والبراجماتزم وفلسفة شوبنهور وفلسفة ميل . وأهم ما تقول به هو أن الفكر كان فى أصل نشأته أداة استخدمها الإنسان فى ميدان تنازع البقاء ، وأنه لا يزال عاجزاً عن النظر فى المسائل النظرية الخالصة ، ولكن التفكير أصبح غاية فى نفسه ، بعد أن كان وسيلة للعمل وأصبح يعالج من المسائل ما لا قبل له بحلها لأن كثيراً من الأفكار ليس فى الحقيقة إلا نوعاً من الأوهام والأساطير يضعها العقل ليستعين بها على حل الأمور النظرية ، حلا لا يستند فى الحقيقة على الواقع لأنه يقوم على تلك الأوهام التى اختلقها العقل اختلاقاً .

إلى غير ذلك من الحالات الكثر التى يظهر فيها تعويض بعض أجهزة البدن عن ضعف بعضها الآخر تعويضاً واضحاً ، يبقى على الكائن حياته ، ويزيد قدرته على العمل والكفاح . « هكذا تعمل النفس جاهدة تحت ضغط الشعور بالقصور ، أو بتأثير العذاب الذى يقاسيه المرء من فكرته عن ضعفه وقلة حيلته ، للتغلب على هذا الشعور بالضعف والانتصار عليه [١] ».

ويرى أدلر أن المرء يصل إلى معنى الحياة ، منذ السنوات الأربع أو الخمس الأولى من العمر . لكنه لا يصل إلى إدراك ذلك المعنى بالوسائل المنطقية المضبوطة بل يتحسس طريقه فى الحياة ، كما يتحسس الأعشى سبيله فى جو غامض قليل الوضوح ، لأن السيطرة ليست هدفاً معيناً محدوداً ، بل هى شوق حيوى وميل ديناميكى يبعث العقل ، بما له من قدرة على الحدس والتجريد ، للحصول على الغايات التى قد تضمن له الأمن ، وتخفف من شعوره بالقصور ، فيود الصغير أن يصبح كبيراً ، وأن يغدو رجلا كاملا قويًّا ، ويتمثل ذلك فى شخص الأب أو الأم أو المعلم أو سائق القطار أو الحوذى ؛ كما أن تلك الرغبة فى التعويض تظهر منذ وقت مبكر فى سلوك الأطفال وحركاتهم وألعابهم ، إذ يندفعون ، نتيجة لما يشعرون به من صغر وضعف ، إلى العمل جاهدين للوصول إلى الغاية التى رسمها كل منهم لنفسه ، ويلتزمها الواحد منهم منذ صغره حتى آخر عمره .

يتخذ المرء ، منذ صغره ، أصولا عامة للعمل والتفكير ، تصدر عن ميل العقل الإنسانى إلى استخدام الفروض والأوهام ، لتنظيم كل ما يوجد فى العالم من عماء وتغير وحركة ، يود أن يرتبها تبعاً لما يضعه من المعايير المعينة المضبوطة . مثل الصغير فى ذلك ، مثلنا جميعاً ، حين نقسم الكرة الأرضية بوساطة خطوط ودوائر وهمية للطول والعرض حتى نستطيع على أساسها أن نحدد

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 75.

الأمكنة التى نود تعيينها أو الوصول إليها . على هذا المنوال « نوجه أنفسنا تبعاً لنقطة ثابتة خلقناها خلقاً مع أنه ليس لها فى الواقع وجود »[١]، وهذه النقطة ليست إلا وهماً ، نستعين به على السير خلال فوضى الوجود ، ونقدِّر على ضوئه قيم الأشياء بعضها بالنسبة إلى بعض ، ونقحم به فى الحياة الملموسة الواقعية فكرة مجردة ليس لها من الحقيقة نصيب كبير .

ويختلف لب ذلك الوهم من طفل إلى آخر ، بل غالباً ما يتباين تبعاً لترتيب ولادة الطفل وفى الأسرة الواحدة . غير أن ما يدفعنا جميعاً ، فى كل الظروف ، دفعاً شديداً نحو اتخاذ هذا الوهم ، هو عدم الأمن الذى نستشعره فى الطفولة والبون الشاسع الذى يفصل الكبير عن الصغير وما يستمتع به ذاك من السطوة والمكانة العالية التى يتخذها الصغير غاية يتطلع إليها[٢] . ثم يستطرد أدلر فيرى أن ما يدفع بنا جميعاً ، وما يدفع بالأطفال والعصابيين على الأخص ، إلى ترك طرق الاستقراء والقياس المألوفة واصطناع هذه الحيل الوهمية ، ليس إلا الشعور بالقصور والميل إلى التخلص منه ، والرغبة فى السمو إلى الاعتزاز بالشخصية والرجولة الكاملة وهى المثل الأعلى للسيطرة .

ويقول إنه من اليسير إذا نحن بحثنا فى مختلف ألوان السيطرة التى يشخص الإنسان نحوها ، أن نجد عنصراً عامًّا فيها جميعاً ، هو العمل على التشبه بالله . وقد نجد بعض الصغار أحياناً يفصحون عن هذه الرغبة ، فيقول بعضهم : « إنى لأرغب أن أكون إلهاً » . ويذكر أن هذا الخاطر قد مرّ بأذهان بعض الفلاسفة ، كما أن كثيراً من المربين يرغبون فى تنشئة الأطفال وتدريبهم على التشبه بصفات الله الحسنى . ويقول : « إن هذا المثل الإلهى الأعلى يظهر على منوال أكثر تواضعاً فى الدعوة إلى الوصول إلى الإنسان الأعلى »[٣] ويقول إن هذا اللون من السيطرة يظهر صريحاً عند المعتوهين ، حين يخيل

---

(١) Adler : Op. Cit., p. 72.

(٢) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 51.

(٣) Adler : *What Life Should Mean to You*, p. 60.

لكل واحد منهم أنه نابليون أو أنه عاهل الصين ، ويرغب أن يكون مركزاً لانتباه العالم كله ، وأن يكون على صلة بأطراف الكون يسمع ما يجرى فيه ، ويتنبأ بالمستقبل وتصدر عنه القوى الخارقة للعادة . أما عند العقلاء من الناس فيظهر ذلك فى إيمانهم بخلود الروح والبعث إذ تعود تلك العقائد جميعها إلى الرغبة فى التشبه بالله . بل إن الملحد نفسه ليود أن ينتصر على الله ، وأن يهدمه فيكون له من ذلك إرضاء لنفسه وشعور بالسيطرة .

ويؤيد أدلر ما قاله «جوته» ، من أن الإنسان لا يقتصر على إرضاء حاجاته اليومية فحسب ، بل يسعى دواماً للخلوص من هذه الحياة بوساطة عاطفته كى يسمو بنفسه إلى أقصى الآفاق التى يمكن أن يصل إليها . ثم يزيد أدلر فيقول إن هذا السمو تعويض تتعدد صنوفه ، وتتباين أشكاله من الرغبة فى التضحية إلى محبة الكفاح ، أو حب الاستطلاع ، أو البلادة والتراخى ، أو المواظبة واستقصاء الحقيقة . فلا تكون كلها سوى طرائق يتخذها المرء لزيادة الاعتزاز بشخصيته والسمو بها من عالم الواقع إلى سحائب الوهم والخيال .

ويقول إن الصغير إذا ما بدأ إدراكه لقدره ، وإحساسه بقصوره وآلامه ، بدأ استعداده للحياة عن طريق اللعب . وهنا يخالف صاحبُنا «كارل جروس»[1] فى نظريته عن اللعب ، التى تقول إن ما يظهر فى الأطفال من أشكال العبث وضروب النشاط ليس سوى إعداد للحياة المقبلة ، بينا يرى أدلر أن اللعب وسيلة للوصول إلى الغاية النهائية : وهى الشعور بالأمن الذى يعوز كلا منا فى مطلع حياته .

---

(١) تقوم نظرية Karl Groos المعروفة على النظر إلى اللعب من الوجهة البيولوجية التى تقول بأن اللعب هو الطريقة التى يستعد بها كل نوع من أنواع الحيوان لأسلوب حياته المقبلة . فالطائر الصغير يعبث بجناحيه ، دربة تعينه على الطيران ، والقطة الصغيرة تعدو وراء الكرة وتعمل فيها أسنانها كى تجيد متابعة فرائسها بعد ذلك . وهكذا وصل جروس إلى القول بأن الطفل لا يلعب لأنه صغير ، لكنه بدأ صغيراً كى تتاح له الفرصة للعب أو بمعنى آخر للدربة على الدور الذى قدر عليه أن يقوم به فى مقبل أيامه .

وهكذا لا تكون الملاحظة أو الانتباه أو التفكير أو معايير القيم ، سوى وسائل للحصول على هذا الأمن ، تنشأ فى نفس الصغير تبعاً للسبيل الذى انتهجه كى يتوافق مع حاجته للسمو بشخصيته . فيتخذ من شعوره بالقصور معياراً يقوّم به الفروق التى توجد بين ما يعرض له فى مختلف نواحى الحياة ، ويلجأ إلى الغاية النهائية الموهومة يلتمس فيها حمى يأوى إليه ، هرباً من شعوره بالقلق وعدم الأمن . ويرسم الصغير لنفسه صراطاً يزداد استقامة وتحديداً كلما زاد شعورة بالقصور قسوة وحدّة ، فيستوحى الفرد من بيئته الغاية النهائية التى تتوافق مع استعداده ، ومع لون قصوره ، فيشخص نحو القوة الروحية أو البدنية أو الخلود ، أو الفضيلة ، أو الثروة أو المعرفة ، أو أخلاق السادة ... وغير ذلك .

يرى أدلر أن مهمة العقل هى التنبؤ بما سوف يقع من الحوادث والأمور ، واصطناع الوسائل التى يستطيع أن يحكم بها قياد المقبل من الأشياء . ويقرر أن أهم وظيفة للنفس هى أن تكون أداة للهجوم والدفاع . ذلك لأن الإشباع الفسيولوجى الخالص لما فينا من غرائز ، ولما نشعر به من حاجات ، لا يكفى وحده لمواجهة الأوضاع المختلفة التى تعرضها علينا الحياة . يثبت ذلك أن الطفل يبدأ منذ أواخر عهد الرضاعة فى القيام بحركات وأمور نستبين منها رغبته فى إثبات وجوده فى المحيط الذى يعيش فيه . فيبدأ فى تكوين صورة عن المثل الأعلى الذى يرى لزاماً عليه أن يشخص إليه ، حتى يضمن لنفسه مركزاً فى البيئة التى قدر عليه أن ينشأ فيها . ويستخدم قدرة العقل على التمثيل والتشبيه ، فيرسم صورة لما سوف يكون عليه فى مقبل أيامه ، ويتمثلها على طراز واحد من أهله أو على شكل حيوان . وقد يسرف فيصل إلى التطلع لصورة الله نفسه . وتزداد تلك الصور وضوحاً وإشراقاً كلما ازداد شعوره بضعة مركزه وتفاهته بالنسبة لمن يعيش بينهم .

تتميز تلك العملية بأن الذاكرة تخضع فيها خضوعاً تامًّا للوهم الموجِّه ،

وتخضع الصورة التى يتمثلها الطفل عن العالم خضوعاً بالغاً للقيود التى تصدر عن صغره وضعفه . يزيد على ذلك أن ما كان أول الأمر مجرد حيلة تخيلها المرء كى تتوافق مع موقفه ، واتخذها وسيلة يشق بها سبيله ويحقق غايته ، تصبح غاية فى نفسها ، يقوِّم المرء كل الأشياء تبعاً لها منذ طفولته ويستمسك بها طول حياته . ولا تصبح الذاكرة وهى القدرة التى تستوعب تجارب الفرد نظاماً موضوعياً ، بل تصير وظيفة ذاتية ، يضبط قيادها الوهم المرسوم عن الشخصية المقبلة .

و « هكذا يصير الوهم الموجِّه وسيلة وحيلة يستخدمها الطفل للتخلص من شعوره بالقصور ، فيصدر التعويض عن ذلك الوهم ، الذى يخضع هو نفسه للرغبة فى الأمن . وكلما ازداد الشعور بالقصور عمقاً وشدة ، ألحت الحاجة إلى خطة للتوجه تكون الغاية النهائية منها هى الأمن ، وازدادت تلك الخطة وضوحاً وتحديداً »(١).

وقبل أن يعرض أدلر لأشكال التعويض يبدأ أولا بنقد نظريات غيره عن أهداف السلوك الإنسانى . فيقول إن ما يظهر من الميول الجنسية التى يفسر بها فرويد النشاط الإنسانى عامة ، والأمراض النفسية خاصة ، ليس سوى وسيلة للتعبير عن السيطرة أخذت فى نفسها كغاية ، بعد أن كانت أول الأمر وسيلة فحسب ، ويقول إننا لو حللنا العقدة الأوديبية مثلا لرأينا أنها ليست ، فى صميمها ، سوى فكرة مجازية مصورة ، تخلو فى أغلب الأحيان من أى لون جنسى ، يمثل بها العقل قوة الرجل وسيطرة الأب على الأم . ومن الخطأ الفاضح أن نفهم من هذا الرمز أن الطفل يرى فى أمه المرأة الوحيدة التى يود أن يستحوذ عليها وأن نظن أن رغبته الجنسية تدفع به نحو الكفاح فى سبيل الحصول عليها ، كفاحاً قد يكلفه حياته ثمناً له ، مع أن الاضطجاع إلى جانب الأم إن هو إلا رمز للسيطرة ؛ ويؤيد أدلر رأيه هذا بما ذكره

(١) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 66.

هيرودوت عن حلم هيبياس بأنه نام إلى جانب أمه ، حين انتوى غزو مسقط رأسه ، ورأى مثل ذلك الحلم مرة ، حين رافق أباه فى الفتح . ويرى أدلر أن العقدة الأوديبية هنا تظهر كرمز لشهوة السيطرة ؛ ويقول إن الرومانيين مثلا كانوا يرون الاضطجاع إلى جانب شخص ما عبارة رمزية للرغبة فى الفتح والنصر . وهكذا لا تكون الانحرافات الجنسية ، على رأى أدلر ، سوى ذرائع للتخلص من السبيل السوى فى الحياة ، وطرائق للهروب من الأوضاع التى ألفها الناس هروباً يخيل إلى المرء أنه يستطيع أن يسمو به عليهم وأن يفوقهم .

ثم ينقد الرأى الذى يقول بأن النشاط الإنسانى ينتظم تبعاً لمبدأ اللذة والألم قائلا إنه معيار متهافت ، يختلف بين الفرد والفرد ، ويتباين تبعاً للزمان والمكان فلا يمكن اتخاذه قانوناً للسلوك الإنسانى . ثم رفض أن يسلم أيضاً بأن حب البقاء هو هدف السلوك ، قائلا إن الناس كثيراً ما يخرجون عليه فرادى وجماعات فيقومون بما يودى بحياتهم أو بحياة غيرهم ، متخذين غايات أخرى يرون أنها خير من البقاء وحده وأسمى منه .

بعد ذلك يلخص أدلر رأيه فى صنوف التعويض ويعرضها فى الشكل الآتى :

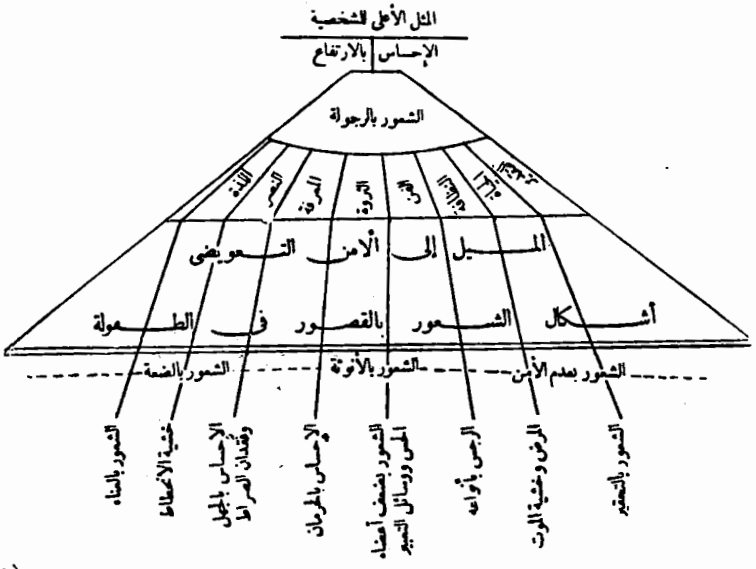

يرى أدلر إذن أن المثل الأعلى للشخصية يختلف بين الفرد والفرد فيكون تعويضاً عن قصور معين ، أو ألواناً عدة من التعويض عن أكثر من قصور واحد . لكنه يصدر ، فى كل الظروف ، عن إرادة القوة التى تبكر فى الظهور وتزيد فى القوة كلما ازداد الشعور بالقصور الجبلّى حدة فى نفس الطفل ، فيندفع الصغير ساعياً وراء الأمن ، ويكوّن لنفسه مثلا أعلى عما ينبغى أن تكون عليه شخصيته ، ويقوم تكوين هذا المثل على أحد مبدأين : الأول هو الطريقة الرمزية فى التعويض عن إحساسات القصور ، والثانى هو اتجاه الحركة النفسية على الدوام إلى أعلى .

ثم يرى أن عناصر القصور والتعويض كثيراً ما يختلط بعضها ببعض ، وقد تتخذ أشكالا بين الأنانية والغيرية ، غير أنها جميعاً تنحو نحو مثل أعلى يتعلق المرء بأهدابه منذ الطفولة تبعاً لمبدأ الاقتصاد فى التفكير ، وتوخياً لبذل أقل الجهد فيه . ولهذا ينبغى ألا تعتبر صورة ذلك المثل سوى رمز قد يحقق يوماً إرادة القوة فى الفرد ، وهو لهذا يهديه فى الحياة ، وينير له السبيل الذى قد يصل به إلى التعويض عما يشعر به من نقص أو ضعف أو قصور .

وقد يكون التعويض تعويضاً مباشراً ، يدفع الضرير إلى النبوغ فى الأدب أو الأصم إلى الإبداع فى الموسيقى . وينشأ ذلك من أن قصور العضو يخلع على الوصلات العصبية المرتبطة به ، وعلى ما يتبعها من نظام نفسى ، جهداً من طبيعته أن يثير فى هذا النظام تعويضاً قويًّا فى الحالات التى يمكن فيها التعويض . والأمثلة التى تؤيد ذلك الرأى كثيرة متعارفة لا يحدها حصر ، نذكر منها على سبيل المثال نبوغ ديموستين الإغريقى فى الخطابة على الرغم من لثغته ، ونبوغ أبى العلاء وملتون وبشار فى الأدب والشعر رغم عمى كل منهم ، وبيرون الذى مهر فى السباحة رغم أنه كان أعرج ، وبيتهوفن الذى أخرج خير قطعة فى الموسيقى بعد أن وفد عليه الصمم ، ومكسيك المصارع وبطل الرياضة البدنية المعروف الذى كان مصاباً بذات الصدر فى طفولته . بل لقد « روى بيرك الأديب الإنجليزى

المشهور . . . أنه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً لعلم الضوء فى الجامعة وهو قد ولد مكفوفاً »(١) .

ولعلنا نستطيع أن نزيد على ذلك ما نعرفه فى أدبنا الشعبى من عبارات تؤيد ذلك الرأى فى التعويض تأييداً يعتمد على الفهم العام والواقع الملموس المتعارف . نذكر منها : « أعمى العين ومفتح القلب » ، « أقرع ونزهى » ، « مالقوش العيش يمضغوه جابوا لهم عبد يلطشوه » — هذا إلى المثل العربى المعروف : « كل ذى عاهة جبار » .

ومن أمثلة التعويض المباشر ما يعرف عن تكوين الاستعداد البصرى ، الذى يلازمه فى أغلب الأحيان علامات بدنية أخرى ، تهمنا منها واحدة : هى توقف شعيرات الجلد الرقيقة عن النمو و بقاؤها فى حالة جنينية . وهذا النقص فى النمو يوجد أيضاً فى الأوعية الدموية للشبكية لأنها من نفس الطبقة الجنينية التى يتكون منها الجلد الخارجى . فإذا وجدت الشبكية فى حالة شاذة أمكن القول بوجود قصور عضوى ، و يؤدى هذا الشذوذ التشريحى فى العين إلى أن تعمل عين البصرىّ على منوال يختلف عن العين العادية مع أن الفرد قد لا يشعر بتاتاً بهذا الفارق . و يقوم الأشخاص المصابون بذلك القصور بمحاولات للتعويض ، والتعويض الزائد يدفع بهم إلى ما نسميه بالسلوك البصرى ، وهو توجيه النشاط نحو البصريات ، والإغراق فى ذلك حتى يؤدى بالفرد منهم إلى الوساوس والأوهام المعروفة عن الطراز البصرى من الناس .

أما قصور الجهاز البصرى بصفة عامة ، فعظيم الأثر فى نشوء ما نسميه بالمواهب ، فليس ضعف البصر سمة لكثير من الرسامين فحسب ، بل إن كثيراً من الكتاب يعانون من قصر النظر الشديد ، حتى يلعب وصف المرئيات فيما يكتبون دوراً كبير الأهمية جليل الأثر . فهم يرسمون بالكلمات ما يعبرون به عن خيالهم الخصب الوفير . و يوجهون ما لديهم من قوة الإبداع فى تصوير

(١) عن المرحوم الأستاذ المازنى ، جريدة البلاغ عدد ٧٠٣٤ .

المناظر وعرضها عرضاً حيًّا واضحاً .

أما العيوب البصرية لإحدى العينين فينتج عنها اضطرابات فى رؤية المجسمات تبلغ من الأهمية والطرافة حدًّا عجيباً ، ذلك لأن قدرة العينين على مزج الصور البصرية التى تقع على كل من الشبكيتين ، حتى تخرج منهما صورة واحدة ، هى التى تهيئ لنا إدراك المجسمات ؛ ويقوم عمل جهاز « الستريوسكوب » على هذا المبدأ . فى هذا الجهاز توضع صورتان أخذتا فى وقت واحد بآلتى تصوير متباعدتين إحداهما عن الأخرى بقدر البعد الطبيعى بين العينين ، حتى تستطيع كل عين أن تبصر الصورة التى تناسبها وبذلك يتلاشى انبساط الصورتين وينتج بدلا عنهما صورة مجسمة ذات ثلاثة أبعاد . يجرى مثل ذلك تماماً فى الرؤية العادية إذ أن الصورتين اللتين تنعكسان على الشبكيتين ، تقوم بينهما نفس العلاقة التى بين جزئى الصورة التى تكون فى جهاز الستريوسكوب — فإذا كان الشخص مصاباً بعاهة فى إحدى عينيه ، تؤدى إلى تشويه الصورة التى تقع عليها ، عوّد نفسه على حذف هذه الصورة المشوهة حين يستعمل عينيه معاً ، فكأنه فى الحقيقة يبصر بعين واحدة ، وأغلب هذا النوع من الإبصار منبسط ذو بعدين لأن العين الواحدة لا تهيئ لسواه .

إذا أصيب الطفل بالإبصار المنبسط أثر ذلك فى سلوكه أثراً بعيداً . ذلك لأن العينين تضبطان كل الأفعال التوافقية اللطيفة ، ويكفى لتقدير أهمية الإبصار الستريوسكوبى أن تغلق إحدى عينيك فى أثناء قيامك بإحدى الحركات التوافقية . لهذا يلقى الأطفال المصابون بذلك النوع من الإبصار صعوبات خاصة فى تعلم الحركات والأعمال اليدوية ، ويتجهون أحد اتجاهين : فيتعذر على بعضهم التغلب على فشله اليدوى فيبعد عن أداء الأعمال التى تؤدى إلى فشل محقق يلازمه ، ويشرع آخرون فى التعويض تعويضاً زائداً عن عاهتهم فى نفس الميدان الذى يشعر كل منهم أنه قليل الحيلة فيه وتظهر مهارته فى الأعمال اليدوية .

ويذكر أحد أصحاب أدلر [١] حالة أحد مرضاه : كان يشكو من عاهة بصرية بعين واحدة لهذا كانت تصعب عليه منذ طفولته رؤية المجسمات فاستعاض بالتوفر على العناية بكل المظاهر المجسمة للدنيا التى يعيش فيها . وكانت أحب الدمى عنده فى طفولته دمية من الخشب مغزلية الشكل نحتها هو بنفسه ، وصار فى كبره من أكبر علماء الطبيعة ، وتوصل إلى اختراع هندسى ذاع به صيته يقوم على استعمال مراجل هائلة أسطوانية أو مغزلية الشكل ، يمكن أن نلمس بذورها الأولى فى الدمية الخشبية التى نحتها فى طفولته . ومن العجيب فيه أن العلاقات ذات الأبعاد الثلاثة كانت تلعب دوراً كبيراً فى تفكيره الطبيعى والفنى . وأنه كان دون غيره من الخبراء الفنيين يتصور اختراعه عند إنشاء أحد الأجهزة الجديدة فى صورة مجسمة ثلاثية الأبعاد .

ولا يقتصر التعويض عن القصور العضوى على الميدان العلمى أو الفنى ، بل هو كثيراً ما يظهر فى تكوين الأخلاق ، وطراز الشخصية ، ويكفى للتمثيل على ذلك ما يعرف عن خفة الشخص السمين وظرفه ، أو تجمل الرجل القبيح بالتفوق الروحى أو العقلى على غيره .

ذلك هو التعويض المباشر عن قصور محدود معين . غير أن التعويض فى أغلب الحالات يكون تعويضاً عاماً عن إحساسات القصور المختلفة ، ويصبح مزيجاً من عناصر عدة ، وطرائق مختلفة ، لتحقيق الميل إلى السيطرة ، وهو فى الحالين يتجه دواماً نحو تحقيق مظاهر الرجولة ، لأنها على رأى أدلر ، الوهم المقيم الذى يرمز إلى القوة ، والذى يتطلع إلى بلوغ قمته الرجال والنساء على حد سواء .

---

(١) Wexberg : *Individual Psychology*, p. 129.

الاسترجال(١)

يؤمن أدلر إيماناً كبيراً بخنوثة(٢) الناس . وكثيراً ما يذكرها ، ويدلل عليها فى مواضع عدة من مؤلفاته . ولعله على صواب فى ذلك ، إذ أن كثيراً من البحوث البيولوچية الحديثة تؤيد وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث فى الكائن الحى الواحد . وقد قال فرويد من قبل أدلر بذلك الرأى فذكر أن من الطبيعى أن توجد بالمرء درجة معينة من الخنوثة التشريحية . إذ أنه توجد فى كل فرد ، سواء أكان أنثى أم ذكراً ، بقايا لعضو التناسل عند الجنس الآخر . وتوجد تلك البقايا فى حالة أولية وهى عاجزة عن أداء أية وظيفة ، أو هى قد تقوم بأداء بعض الوظائف التى تخالف وظائفها الأصلية . وقد استمدت من تلك الحقائق التى عرفت منذ أمد بعيد « الفكرة القائلة بأن الكائن الحى كان مخنثاً فى الأصل وأنه اتخذ خلال عملية التطور ، وجهة التوحيد الجنسى مع احتفاظه ببعض البقايا المشوهة من خصائص الجنس المقابل »(٣) .

كذلك يرى أدلر(٤) أن الازدواج الجنسى موجود فى الناس كافة ويذكر أن « لاكير » كشف أن هرمونات الجنس الآخر توجد فى بول الناس جميعاً ، وأن « بران » إلى ذلك ، استوثق ، من دراسته لحالات تسعة من اللواطيين ، من صحة ذلك الكشف ، أى من وجود هرمونات الأنثى فى بول الذكر ووجود هرمونات

---

(١) Masculine Protest والتعبير ، كما سوف يتضح بعد ، معوج إن ترجمناه حرفياً قلنا « الاحتجاج الرجلى » فرأينا أن من الأصوب ترجمته «بالاسترجال». ومع أن الطلب فى اللغة يقصد منه محاولة الحصول على الشىء عند غيابه ، وبذلك تنتفى نسبته إلى الرجال ، إلا أنه يمكن قبوله لأن «الاسترجال» يثور فى نفس الرجل عند شعوره بالعوز إلى الرجولة .

(٢) Hermaphrodism.

(٣) Freud : *Troix Essais sur La Sexualité* p. 29.

(٤) عن خلاصة مقال لأدلر عن الانحراف الجنسى فى :
Psychological Abstracts. 1933,2324.

الذكر فى بول الأنثى . هذا إلى ما ذكره من أن دراسة التوائم قد تؤدى يوماً إلى التثبت من الخنوثة التى توجد فى الأفراد وتعين على فهم تلك الحقيقة .

يربط أدلر ذلك بشرحه نشوء المعانى المجردة « للعالى » و « الوطىء » فى ذهن الإنسان ، ويقول إنه يحتمل كثيراً أن هذا التجريد بدأ منذ العصر الذى شرع الإنسان فيه ينتصب قائماً . ولما كان كل طفل يردد خلال نموه الفردى خطوات تطور الجنس ، يبدأ عقله فى إدراك المعانى المتقابلة منذ أن يتخطى مرحلة الحبو . هذا إلى أن التربية تعمل دائماً على أن تبث فى نفسه ، رعاية لصحته ، أن المكث على الأرض أو الحبو عليها ، فيه إيذاء له ومجلبة للضرر . كما أن خبرة الطفل تزيده يقيناً أن الوجود فى الأوضاع الوطيئة يكون نتيجة للسقوط أو يجعله هدفاً لسقوط الأجسام الأخرى عليه ، مما ينفره من الانخفاض ويدفع به إلى الشخوص نحو الارتفاع ، ويدفع إلى نشوء تلك المعانى المجردة فى عقله ، بعد خبرته ومعرفته التجريبية لها .

هذا إلى ما تبثه الأخلاق على الدوام فى نفس الصغير ، من أن المكانة وحسن الأحدوثة تتطلب « الترفع » عن الدنايا . « لهذا كان من الحتم أن ينشأ فى عقل كل فرد منذ طفولته الأولى ، ربط وثيق بين الارتفاع الخالص فى المكان وبين كل أشكال السيطرة المعنوية أو العقلية »[١] .

ويقول أدلر إن من الطريف أن تاريخ الحضارة وسيكلوجية الأديان تثبت أن مظهر السماء والأجسام العلوية ، لم تزد ربط الناس بين الارتفاع المكانى والارتفاع المعنوى إلا شدة ووثوقاً ، ومن ثم كان الصغار والشعوب البدائية يرون « السمو » فى الشمس ، والنهار ، والفرح ، وارتفاع الإنسان نحو مستويات الحياة العليا . ويرون « القصور » فى الخطيئة ، والموت ، والقذر ، والمرض ، والليل . ولا يقل التناقض بين العالى والوطىء بياناً ووضوحاً فى الأديان الحديثة ، عنه فى العقائد القديمة .

---

(١) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 272.

وهو يرى أنه نظراً لميل العقل إلى التجريد والتفكير المجازى ، تزداد المقابلة المجردة بين العالى والوطىء حدة . كما يتصل بها مقابلة أخرى هى المقابلة بين المذكر والمؤنث ، فيعتبر الأول مبدأ القوة ورمز السمو ، بينا يعتبر الثانى سمة للضعف وشكلا للقصور — مع أنه لا يوجد فى الواقع ما يبرر ذلك الربط بين القوة والضعف وبين التذكير والتأنيث ، زيادة على اختلاطهما الواحد مع الآخر تبعاً لنظرية الخنوثة التى يؤمن بها أدلر كما ذكرنا من قبل .

ويخيل إلينا أن أدلر قد تأثر فى ذلك بالفكرة التى شاعت فى الفلسفة الألمانية — منذ هيجل على الأخص — وهو الرأى الذى شاع على تهافته ، حتى كاد يذهب مذهب المثل حين يقال : « إن المتناقضات فى المجرد متكاملة فى المحسوس »(١) .

وعلى كل يرى أدلر أن الطفل فى العالم الحديث يكوّن من التذكير والتأنيث معنيين متناقضين يتصل كل منهما بالعالى والوطىء . ذلك لأن الحضارة التى نعيش فيها حضارة أقامها الرجال يسيطرون فيها على كل شىء ، وتظهر سطوتهم على النساء فى كل مظاهر الحياة ومرافق العيش المادية والمعنوية . ومع أن النساء يكافحن فى سبيل الاستمتاع بكافة الحقوق التى يستمتع بها الرجل كما أنهن قد يتفوقن عليه فى ذلك أحياناً ، إلا أن الرجل فى الواقع أوفر قوة وأكبر أهمية وخطراً فى المجتمع — هذا إلى أن الرجل بطبيعته يسمو على المرأة فى تكوين بنيته ، وارتفاع قامته ، وجهر صوته ، فإذا ما بدأ الطفل يتميز العالى من الوطىء وإذا ما بدأت أعينه تنفتح على أوضاع الجماعة التى يعيش فيها تبينت له مكانة الرجل ، فاتخذ منه رمزاً للقوة حتى تصبح فكرته عنه فكرة تشمل كل ما هو عال وفكرته عن المرأة تشمل كل ما هو وطىء . فلا يرى من حظ الإناث سوى الطاعة والخدمة والخنوع ، بينا يتمثل فى الرجولة ألوان الأمر والسيادة والارتفاع . لهذا يتشوف كل طفل ، ولداً كان أو بنتاً ، « أن يكون رجلا بمعنى الكلمة » ، وهو لذلك يثور على أى شكل من المعاملة يحقر من شأنه ، أو يمس مثله الأعلى

(١) عن كتاب من أستاذنا لالاند تعقيباً على نقاش لتلك الفكرة .

فى الرجولة ، فليس « الاسترجال » خاصاً ، على ذلك ، بالرجال فحسب ، بل إن كل النساء ، يشعرن إلى حد ما بقصورهن عن الرجال ويثرن على ما قسم لهن ، ولا يرضين بجنسهن ، ويتطلعن على الدوام إلى السيطرة ، وإلى مثل السطوة والسيادة التى يستمتع بها الذكور فى الجماعة . وهن يتخذن لذلك من الأساليب المعوجة الملتوية التى تخفى تحت مظاهر الرقة والرفق والحنان ، تعطشاً شديداً للقوة وميولا قوية للقسوة والشدة ، هى جميعها ، إن اختفت فى ثنايا شغف النساء بإعجاب الناس بهن ، لا يمكن أن تفسَّر الاّ على أنها أشكال من التعويض المذكر تستهدف المثل الأعلى للرجولة .

ذلك أن كل نظم الجماعة وتقاليدها ، والقوانين التى تسير عليها ، وأصول الأخلاق التى تتبعها ، تثبت أن الرجال هم واضعوها ، تمجيداً لجنسهم ، وإقراراً لحقوقهم ، وإبقاءاً على ما بلغوه من بأس ومن مكانة .

غير أن ذلك لا يمت إلى الحقائق البيولوجية بسبب كما أسلفنا « لأن سيطرة الرجل (فى الجماعة) ليست وضعاً طبيعياً »[1] بل إن ما أنتج ذلك ، هو العراك العنيف الذى قام بين الجماعات البدائية وما أدى إليه من توكيل الكفاح إلى الرجال ، مما دفع إلى رفع مكانة الرجل ، وتمجيد شأنه تقديراً لقيامه بواجب الدفاع وشئون الحرب والكفاح . فأسرف هو فى التعلق بتلك المكانة ، وسنّ من النظم والقوانين ما يحفظ السيادة لبنى جنسه ، وأعانه على ذلك استقرار الجماعات ، وتحوّل قوانين الملك ، وحقوق الوراثة فى الجماعات الزراعية على الأخص لصالح الرجل .

إذا لم يكن الصغير يدرك تلك الأمور ، وما إليها من تاريخ النظم الاجتماعية التى أدّت إلى سيادة الرجل ، والتى قررت فى حزم ، لا نقاش فيه ، أن الرجال قوّامون على النساء ، فإن مظاهر ذلك الوضع حتى فى أكثر الأسر وفاقاً ، وأشدها صلة بالأوضاع الحديثة فى المساواة بين الجنسين ، تتضح له كل يوم ؛

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 125.

وتدفعه نحو الشخوص إلى الرجولة ، وما تخلعه على صاحبها من بأس وجاه ، ومن وقار ومكانة .

ويرى أصحاب علم النفس الفردى أن ذلك الوهم الذى يوجه سلوك الأفراد والذى يبعث « الاسترجال » فى نفوس الرجال والنساء على حد سواء ، وما قد يأخذه من أشكال العنف والمرض سيبقى ما بقيت الأوضاع الاجتماعية الحاضرة وما تقرره من تفرقة معنوية ومادية بين حقوق الجنسين . ومع أن شدة هذه التفرقة قد بدأت تخف بعد اشتراك المرأة مع الرجل فى التعليم ، وفى السعى وراء الرزق ، وفى التمتع بالحقوق السياسية نفسها ، إلا أن خير ما يصلح ذلك العوج فى التفكير وما يتبعه من أمراض نفسية هو المساواة التامة بين الجنسين وهم يزعمون أن الجيل المقبل ، فى روسيا مثلا[١] ، سوف يكون أرضى حالا وأقرب إلى جادّة الحياة السوية ، تبعاً لخفض شأن الرجل وضعف سيطرته فى النظام الحالى هناك ، ولمساواة المرأة بالرجل فى كافة الحقوق والواجبات ، ومشاطرتها إياه فى مختلف ضروب العمل والنشاط .

ومن الأمثلة الصارخة التى يذكرها أدلر[٢] عن رغبة الناس دائماً فى اتخاذ مظاهر الرجولة وسيلة للتعويض عن القصور الذى يشعرون به فينسبونه إلى الطبيعة النسائية ، حالة فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها كانت مصابة بداء التبول ليلا ، كما كان غالباً ما ينتابها خلال النهار ، نوبات من الغضب ، وعوج المزاج . هذا إلى كثرة تفكيرها فى الانتحار ، وإلى كرهها الدنيا وما فيها إلا إياه (أدلر)— رأت الفتاة ذات ليلة حلماً يبين تحليله كل الانحرافات التى مرّ ذكرها وصفات أخرى فى خلقها مثل : حب السيطرة وصلابة الرأى وحالات الحنق والضيق التى تثبت كلها رغبتها الشديدة فى أن تكون رجلا . ولكن هذا « الاسترجال » زاد قوة بالقصور الجِبِلّى للجهاز البولى ، وضاعفه قبح

---

(١) Hoyland : *That Inferiority Complex*, p. 47.

(٢) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 232.

المريضة ، وتأخر نموها العقلى . ونتج عن ذلك كله ، رغبة واهية فى مظاهر الرجولة ، فاتخذت المريضة من المظاهر الطفلية ما يجدى لحمايتها . أما عن التبول الليلى فكان يلازمها كل مرة تشعر فيها بالضعف ، وكانت رغبتها الشديدة تتضح بالأزمات التى كانت تدفع أمها إلى اليأس وقلة الحيلة ، وكذلك فى الطريقة التى كانت تلقى بها تبعة الأخطاء التى ترتكبها على غيرها من الناس تحقيراً لهم واستهانة منها بشأنهم . ويظهر ذلك واضحاً فى الحلم الآتى : « عرضت أمى على إحدى صديقاتى غطاء الفراش القذر ، وبعد نقاش حاد قلت لها إن هذا الغطاء غطاء فراشك أنت ، وشرعت فى البكاء بدموع حارة ثم استيقظت فإذا بى غارقة فى بحر من الدمع هتون »، وقصت له بعد روايتها ذلك الحلم بوقت قصير ، أنها كانت تستيقظ كثيراً وهى تبكى دون أن تعلم السبب، ولما كان يعرف نشوء المرض وتكونه استطاع أن يستنتج أنها كانت تصطنع الدمع حيلة ، كما يصطنعه الأطفال ، للحدّ من سيطرة الأم ثم قالت : « لعلك قد وفقت للكشف عن علة بكائى » . ويقول أدلر إنه كثيراً ما كان يسمع خلال العلاج الذى يقوم به ملاحظات مثل هذه ، تعبر عن الرغبة المخبوءة فى نفس المريض للتشكك فى قدرة الطبيب وتحقيره . وخيل إليه من اللهجة الودية التى ختمت بها حديثها أنها كانت فى طريق الشفاء من داء التبول ، وخصوصاً لما لم تصبها نوبات عصابية كالمألوف فى أثناء العلاج . وصدق ظنه لما أخبرته بعد ذلك أنها كانت تقوم بتنظيف غطاء الفراش خفية ، وهو عمل لم تكن تقوم به من قبل ، لأنها كانت تحاول دائماً أن تلفت نظر أمها إلى العمل القذر الذى تأتيه .

وأخبرته حين كانت تفسر حلمها أن أمها تحدثت إلى جميع معارفها عن مرضها ويثبت ذلك أن أحد أخوالها تحدث إليها مواسيا ، فأخبرها أنه كان مصاباً بذلك المرض هو وأحد أخوته (أى أخوين من إخوة الأم) حتى لكأنها كانت فى الحلم تؤنب أمها قائلة : « قد أصبت بهذا الداء من أسرتك ، وليس

الخطأ خطئى إذا كنت ألوث الفراش » ، أى (أنك أنت التى تلوثين الفراش) . وأكملت الفتاة حديثها قائلة إنها وهى تبدل أغطية الفراش ، كانت تخلط بين غطاء الوسادة وغطاء الفراش مع أن الأول مغلق والثانى مفتوح ، لأنه كثيراً ما كان يختلط عليها أمرهما وهما فى الصيوان .

ويقول أدلر إنه كان يختفى وراء ذلك التفكير الرمزى مسألة « المفتوح والمغلق » ، أى التناقض بين المرأة والرجل ، فكأن الفتاة زيادة على اتهام أمها بعلة مرضها ، كانت تندفع بما فى طبيعتها من « الاسترجال » إلى حد بخس الفرق بين الرجل والمرأة قدره (ويستدل على ذلك فى خلطها بين غطاء الوسادة وغطاء الفراش) . وقد ذكّر ذلك أدلر بقول الكاتبة الفرنسية المعروفة « جورج ساند » إنه لا يوجد فى العالم سوى جنس واحد .

هكذا لم تكن الدموع ولا الشجار ، ولا التبول على الفراش عند هذه الفتاة سوى وسائل عصابية اصطنعتها لهدر سيطرة أمها ، كما أنها كانت تتخذ التبول على فراشها طريقة للهرب من الرجل ، ومن الزواج ، ومن الخضوع لسيطرة الرجال .

ومر وهم الفتاة المذكّر بمراحل ثلاث : أرادت أولا أن تكون رجلا ، ثم تحولت رغبتها فى أثناء العلاج إلى السيطرة على الأم كما يسيطر الرجل على المرأة ، وفى أواخر العلاج لم تفكر إلا فى تحقيرها بطرق نسائية . ويقول أدلر إن مما أيد وجهة نظره فى فهم هذا التطور الحلم الآتى الذى سردته عليه : « كنت فى فراش ملتهب وكان كل من حولى يبكى يأساً ، لكنى كنت مغرقة فى الضحك والقهقهة » — ورد ذكر ذلك الحلم بعد حديث عن الحب الطليق الحر ، فكان الفراش الملتهب رمزاً إلى لذّات الحب ؛ كأنها كانت تقول فى حلمها : « لو أننى أعطيت نفسى للحب الحر لفقدت أمى شرفها ، ولهزأت منها وسيطرت عليها » . هذا ويلفت أدلر النظر إلى المقابلة بين اللهب والماء (داء التبول) ، وإلى فضل فرويد فى قوله إن اللاشعور لا يقيم وزناً للتناقض المنطقى وقد يستعمل المعنى بدلا من نقيضه . ثم شفيت الفتاة واستقام أمرها بعد ذلك .

الفصل الرابع

الجماعـــة

بعد أن ألحّ أدلر فى إثبات غلبة الميل إلى القوة والسيطرة فى توجيه السلوك الإنسانى ، اتجه إلى البحث عن أثر الجماعة فى هذا السلوك ، فقال : « إن الشعور الاجتماعى ، بعد الميل إلى القوة ، يلعب أهم الأدوار فى نمو الخلق . ويتضح وجود ذلك الشعور ، كما يتضح الميل إلى الظهور فى ميول الطفل الأولى ، وخاصة فى شغفه بتوثيق صلاته مع غيره ، وفى المتعة بما يبدونه نحوه من عطف وحنان »(١) .

ويظهر إيمانه بأثر الجماعة قويًّا شديداً فى مؤلفاته المتأخرة على الأخص ، حتى ليقرر بعض أتباعه : « إن أهم العمد التى يقوم عليها علم النفس الفردى هى تقديره لأهمية الجماعة الإنسانية ، لا فى نمو الخلق الفردى فحسب ، بل فى توجيه كل حركة وكل انفعال فى حياة الإنسان »(٢) .

ويرى أدلر أن غاية السيكلوچية الفردية هى البحث عن طرائق التوافق الاجتماعى ولا يجد فى ذلك تناقضاً إلا فى العبارة فقط ، لأنه يقول : « إن دراسة الحياة الواقعية للفرد ، تدفعنا إلى تقدير أهمية العنصر الاجتماعى فيها إذ أن الفرد لا يصير فرداً إلا فى متن المجتمع ، وإذا كانت مدارس علم النفس الأخرى تفرق بين ما يسمى سيكلوچية فردية وما يسمى سيكلوچية اجتماعية ، فنحن لا نؤمن بهذه التفرقة على أى وجه من الوجوه»(٣) .

قرر صاحبنا إذن ، أنه إذا كانت العوامل الكونية هى التى تقرر ظروف

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 166.

(٢) Dreikurs : *Introduction to Individual Psychology*, p. 3.

(٣) Adler : *The Science of Living*, p. 199.

الحياة الإنسانية ، فإن ما يقررها ، إلى جانب ذلك ، هو معيشة الفرد فى المجتمع وما يستتبع ذلك من نظام ومن قوانين ، تصدر صدوراً تلقائياً عن الحياة العامة . واعتمد فى ذلك على القول بأن الاجتماع ميل فطرى فى النفس ، يوجد فى بنى البشر كما يوجد فى كافة الأجناس الحيوانية التى لا تستطيع العيش متفرقة . لأن الطبيعة لم تهيئ الإنسان للكفاح فى الحياة وحيداً منفصلا ، فلم تشحذ أنيابه أو تشدّ فى عضده ، أو تبعث الأذى فى مخالبه ، كما بخلت عليه بخفة الحركة وبالحسّ الرهيف . وعوضته عن ذلك ، بأن أعدته لتكوين الجماعات كما هيأت ، من قبل ، غيره من الحيوان ، لتكوين القطعان والأسراب ، إذ لم يكن للإنسان أو الحيوان سوى ذلك السبيل للكفاح فى سبيل البقاء .

والحق أن أدلر ، على صواب رأيه فى هذه الناحية ، لم يأت فيها بجديد . فمنذ أن كتب داروين عن نشاط الحيوان ، ومنذ أن تحدث كُونْت وسبنسر عن الاجتماع ، تقدم البحث عن الميول الاجتماعية وعن أثرها فى إقامة الجماعة وتقدمها أشواطاً بعيدة حتى تقرر أن حب الاجتماع ميل فطرى فى النفس الإنسانية ، يلخص مظاهر ذلك الميل فى الحيوان ويزيد عليه .

ذلك أن الغريزة الاجتماعية فى الإنسان مهما اتخذت من المظاهر التى تبعد بها عن الغريزة القطيعية فى الحيوان ، فإنها تلخص الغايات التى يتخذها الحيوان من تجمعه بعضه إلى بعض ولا تسمو عليها إلا بإدراك تلك الغايات . يحتشد بعض الحيوان لأن احتشاده يعينه على الدفاع عن نفسه مثل قطعان الغزال أو الخيل والحيوانات العشبية الأخرى ، لأن وجود الفرد فى القطيع يهيئ له ظروفاً تحميه من مفاجآت الحيوانات المفترسة ، وتعينه على زيادة المقاومة . لكن الغريزة فى هذه المرتبة ، تقوم على الخوف ولا يصدر عنها أى شعور بالائتناس ، فالثور الوحشى مثلا[1] ، لا يكاد يحس وجوده فى القطيع إلا إذا انفصل عنه ولا يهدأ له خوار إلا إذا احتك

(١) McDougall, *Social Psychology*, p. 72.

بدنه بأبدان أقرانه . أما الحيوانات المفترسة فإن قطعانها تقوم للتعاون على الهجوم ويظهر فيها الزعيم والقائد الذى يتولى قيادة المطاردة ، وينظم العمل على اقتناص الفريسة . ثم ترقى أشكال الغريزة فى جماعات النحل والنمل ، فيزيد عليها تقسيم دقيق للعمل ، يلتزم فيه كل فرد منها حدود العمل الذى يوكل إليه ، مع اشتراكها جميعاً فى الدفاع أو الهجوم . وفى جماعات القردة يظهر عامل الائتناس واضحاً جليًّا بالإضافة إلى ذلك كله ، حتى ليخيل إلينا أحياناً أنها لم تجتمع إلا للهذر والثرثرة واللعب وللشعور باللذة التى يبعثها تجمعها فى نفوس الأفراد .

ومهما اختلفت آراء الانتربولوچيين ، أو علماء الاجتماع ، فى أساس تكوين الجماعة الإنسانية ، فإن الأرجح أن ما يبعث على تكوينها هو الميل الفطرى فى النفس ، وما يؤدى إليه هذا الميل من خير يعود على الفرد والجماعة معا . ذلك لأن تلك الغريزة فى الإنسان ، تجمع مظاهرها فى الحيوان من دفاع وهجوم وتقسيم للعمل وائتناس ، نرى المثل له واضحاً فى كل مرافق الحياة الإنسانية على مختلف أشكالها ، حتى ليرى بعضهم أن تضخم المدن فى العصور الحديثة ولألاء أضوائها ، وتكدس المطاعم والملاهى والمقاهى بروادها ، لم يكن نتيجة للعوامل الاقتصادية أو لما يبغيه القوم من غايات التسلية أو التماس المعرفة ، أو قضاء ما يقصدون ، بل هو بقية من اطمئنان الأفراد إلى العيش فى أكبر قطيع يمكن تكوينه . ومن العبارات المألوفة قول وليم جيمس : « إن من أشد أنواع الأذى أن تبقى وحيداً ، فالحبس الانفرادى من أمقت أنواع التعذيب التى ينبغى أن تقلع عنها الإنسانية الحديثة . وإن من أمتع الأشياء أن نرى آثار أقدام ، أو شبحاً يسير فى صحراء مقفرة أو جزيرة موحشة » .

ذلك كله رأى شائع حصيف فى تفهم الجماعة الإنسانية . حتى ليصير من سقط القول أن نقرر أن الحياة الإنسانية لم يكن فى الإمكان أن تقوم

منذ عصور وأجيال إلا على التعاون بين الفرد والفرد ، لأن المرء يستعين بغيره فى أتفه الأمور كما يستعين به فى أسماه ، فلو سلمنا بأن الإنسان فى أول أمره ، كان يسد كل حاجاته وحيداً : يقتنص صيده ، ويشحذ سلاحه ، ويقيم كوخه ويوقد سراجه ، فإن تلك المرحلة الفردية فى التماس العيش ، إن كانت قد وجدت ، لا بد أنها كانت قصيرة الأمد ، اندفع الناس بعدها إلى التماس المعونة بعضهم من بعض ، توفيراً للجهد ، وزيادة فى إتقان العمل ، فصار بعض القوم زارعاً والآخر بانياً ، وغيرهما صياداً أو صانعاً . فقامت المهن منفصلة على قدر الإمكان كل منها فى أمر من الأمور الإنسانية ، وكانت الحضارة خلال ارتقائها ، تزيد فى تقسيم العمل دقة وتمييزاً ، حتى وصلنا إلى ما نراه اليوم من تخصص عجيب فى تأدية الأعمال . ومن الطبيعى أنه كلما زاد ذلك التقسيم فى العمل ، اشتد عوز المرء إلى غيره فى سد حاجاته ، وأصبح الفرد يستعين بغيره فى أتفه الأمور كما يستعين به فى أسماها ، ولا يمكن أن يحصل على طعامه أو لباسه ، أو يصل إلى علم أو فن إلا بتعاونه وتضامنه مع غيره . بل ليس العلم أو الفن سوى معارف أو ألوان من الجمال يتداولها الناس فيما بينهم .

« ذلك لأن تقسيم العمل (وهو يعنى الحضارة فى صميمه) كفيل وحده بأن يهيئ للجنس الإنسانى العدة اللازمة للهجوم والدفاع . ولم يحذق الإنسان كيف يرفع من شأن نفسه إلا بعد أن حذق تقسيم العمل »[1] . وقد عاش الإنسان منذ أحقاب لا يدرك العقل مداها ، مع غيره ، وطابق بين نفسه وأصول التضامن والعمل المشترك . كما زادت الطبيعة ، على ولعه بذلك التضامن وعلى إيمانه بجزيل نفعه له ، أن جعلت الإنسان خلال طفولته من أقل الحيوان حيلة ، ومن أشده عوزاً إلى المعونه : يَنْفق إذ لم يطعمه غيره . ولا يخطو إلا بمعونة صنوه الكبير ، بل لا تنمو حواسه ،

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 29.

ولا تصقل كفاياته ، إلا بمشاطرته غيره فى أشكال العمل والنشاط .

ألح أدلر وأطنب فى التحدث عن غريزة التجمع . وما عادت به على الإنسان من نفع عميم حتى نسب إليها أنها كونت فيه العقل وأنها أنشاته إنشاء «وأن أهم الأدوات التى خلقتها (غريزة القطيع) لمناهضة مصاعب البيئة هو العقل الذى تتشبع ماهيته فى صميمها بلزوم العيش وسط الجماعة »[١] ويشرح رأيه هذا معتمداً على قول داروين من قبل بأن الحيوانات الضعيفة لم تكن تستطيع أن تكافح فى الحياة فرادى ، وأن الإنسان واحد من تلك الحيوانات كان لا بد له للكفاح فى سبيل البقاء من استكمال بدنه ببعض الوسائل الصناعية ، فلو أن القدر ألقى بإنسان غفل ، فى حرش بدائى ، لكان المسكين أقل الأحياء هناك صلاحية للعيش . إذ أين له سرعة غيره من الحيوان الكاسر ؟ أين له بطشه وقوته أو حدة أنيابه أو دقة سمعه أو ثاقب بصره ؟ على لزوم تلك الأمور للجهاد فى سبيل الحياة . لهذا كان عليه أن يلجأ إلى وسيلة أخرى ، فوجد الأمن فى تجمعه بعضه مع بعض ، وما أدى إليه هذا التجمع من زيادة قدرة الفرد على الدفاع والهجوم ، وهنا نشأت الحاجة إلى عضو نفسى يستطيع القيام بعمليات المطابقة (بين الفرد وبيئته) وضمان الأمن[٢] إذ كان من العسير المسرف فى العسر أن يهيئ التطور من الإنسان البدائى كائناً يستطيع جِلاَد الطبيعة بتزويده بجانب من عدد الدفاع التشريحية ، كالقرون أو المخالب أو الأنياب ، فسارع إلى إسعافه « بالعضو النفسى » كى يعوضه عن عجزه البدنى فتكونت له البصيرة والحذر ، وكان قصوره البدنى سبباً فى الرقى بعقله إلى حالته الحاضرة ، كعضو للتفكير والشعور والعمل . ولما كان الدور الذى لعبته الجماعة كبير الأهمية فى عون الفرد على البقاء ، وفى تدريبه على التوافق

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 28.

(٢) : *Ibid.*, p. 29.

مع بيئته ، كان لزاماً على النفس ، منذ أول الأمر ، أن تؤمن بأوضاع الحياة الجمعية ، لهذا نضجت كل الملكات على أساس واحد هو منطق الحياة الجمعية .

ثم استطرد أدلر من هذا فقال : إن المنطق وضرورة صدقه فى كل الأحوال كان خطوة أخرى فى سبيل نمو العقل الإنسانى ، وارتأى أن الأمر المنطقى هو ما يتبين نفعه فى كل الظروف . كذلك رأى أن الكلام من أدوات الحياة الجمعية ، وأنه المعجزة التى تميز الإنسان عن غيره من الحيوان ، وأن أشكال الكلام تشير إلى أصوله الاجتماعية ، فهو ظاهرة يمكن تفسيرها على ضوء المنفعة العامة للجنس الإنسانى ، إذ لا ضرورة للكلام عند كائن حى يعيش منفرداً وحيداً .

هذا إلى أن للكلام خطراً كبيراً فى نمو العقل الإنسانى . لأن التفكير المنطقى لا يمكن أن يكون إلا فى ألفاظ نستطيع أن نكوّن منها كليات ونوازن بها بين القيم «وتكوين الكليات ليس مهمة فردية ، بل هو أمر يتعلق بالجماعة كلها»[١] .

بل إننا لا يمكن أن نتفهم ما يخطر لنا من أفكار ، أو ما يعرض لنا من انفعالات إلا إذا تفهمنا استعمالها الشائع بين الناس ، ومن ثم كان الاستمتاع بالجمال يقوم على أن التعرُّف على الحُسن وفهمه والشعور به أمور مشتركة بين القوم جميعاً . بل الإرادة نفسها ليست سوى الميل إلى التوافق مع البيئة والعمل على زيادة صلات المرء مع المجتمع .

ألح أدلر فى الحديث إذن عن الميل إلى الاجتماع حتى نسب إليه نشوء التفكير والعقل ، والمنطق ، والأخلاق ، والجماليات ، وقال إنها جميعاً أمور لا تنشأ إلا فى المجتمع ؛ وإنها فى نفس الوقت مساك بين الأفراد ، يقصد منه حفظ الحضارة من التحلل . «ذلك أن كل الكفايات الإنسانية ،

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 31.

لا يمكن أن تنمو وتنضج إلا خلال اهتمامنا برفاقنا فى المجتمع . وليست اللغة أو القراءة أو الكتابة سوى جسر للوصول إلى غيرنا من الناس . كما أن التفكير من الأمور المشتركة بينهم جميعاً وليست وظيفة مستقلة فى كل واحد منهم ، لأن فهم الأمر هو فهمه على الوجه الذى يخيل إلينا أن الناس جميعاً يفهمونه عليه »(١) .

ثم أغرق أكثر من هذا حتى قال : « إن الميول الجنسية ليست دافعاً فطرياً فى الإنسان ، بل هى علاقة تقوم بين شخصين من الجنسين ، تنمو خلال العلاقات الاجتماعية »(٢) . ورأى أن الحب ليس عملا ذاتياً ، بل أمراً يؤديه شخصان ، وميلا لا ينمو بين المرء ونفسه فحسب ، بل يتطلب تجمعاً وائتلافاً ،وقرر أنه هنا يختلف اختلافاً كبيراً عن أصحاب التحليل النفسى

ومن ثم يتساءل عن أثر الجماعة فى تكوين سلوك الفرد . فيخالف فرويد فيما يراه من أن الغرائز الإنسانية لا تخضع إلا قليلا لمطالب العلاقات الاجتماعية وأن النفس الإنسانية تتجاذبها صنوف مختلفة من العوامل المتنافرة ، فتجذبها الحاجة إلى التوافق مع الجماعة من ناحية ، كما تجذبها الغرائز الفطرية من ناحية أخرى ، ويرى أدلر وأتباعه أن العلاقات الاجتماعية تؤثر أثراً بالغاً فى طبيعة الجنس ومميزاته ، لا فى الإنسان فحسب ، بل فى الحيوان أيضاً . حتى لقد تمكّن تلك العلاقات بعض الأفراد من عصيان قوانين الطبيعة ، على شدتها وقوتها وكبير سطوتها ، وأنه إذا كانت الكائنات الحية جميعاً ، تبعاً لغريزة البقاء ، تعمل جاهدة فى البحث عن الطعام والإكثار من النسل ، فإن الناس يرفضون فى بعض الظروف طاعة تلك الغرائز الفطرية ويبلغ من عصيانهم لها ، أن قد يتضور الصغير جوعاً ، إن رأى أن ذلك هو خير الحيل التى يستطيع بها أن يشاكس أهله كى يفرض عليهم أهواءه ، هذا إلى أن الإضراب عن الطعام بين الكبار شكل من أشكال الاحتجاج

(١) Adler : *What Life Should Mean to You*, p. 255.

(٢) Ibid : *Individual Psychology & Sexual Difficulties* (Ind. Psych. Publications, No. 3) p. 12.

التى يلجأون إليها فى كثير من الأحوال . أما عن العزوف عن التناسل ، بل كبت الميول الجنسية حتى فى أكثر أشكالها سذاجة أو تأجيل إشباعها إلى أبعد أجل ممكن فمن الأمور المتعارفة بين القوم ، وهى من خصائص الحضارة المعاصرة على الأخص ، وما تفرضه من قيود ثقافية واقتصادية واجتماعية تعمل على تحديد الميول الجنسية ، وتنظيمها ، وتأجيل إشباعها تبعاً لأوضاع المجتمع الحديث . فإن قلنا إن ما يعمل فى ذلك هو عقل الإنسان وذكاؤه أكمل أصحاب السيكلوچية الفردية حجتهم بالقول بأن النحل نفسه ، قد ذهب إلى أبعد من ذلك ، حتى اختزل الغريزة الجنسية على شدة قوتها وسيطرتها على عالم الحيوان كله ، إلى وظيفة دقيقة النظام ، تتوافق مع حاجات المجتمع الذى يعيش فيه ، فحرم أغلب الأفراد من إشباعها ، ووكل القيام بها إلى قلة ، تقوم على التناسل وإنتاج الخلف فحسب ، ويرى القوم فى ذلك حجة لرأيهم فى أن غريزة الاجتماع تستطيع أن تطغى حتى على أقوى القوانين البيولوچية وأعمقها أصولا فى طبيعة الكائن الحى .

وبعد هذا كله يحاولون أن يرفعوا من قدر الفرد ، وأن يثبتوا فاعليته ، فيقولون إنهم إذا كانوا يقررون أن ما يحدد طبيعة الفرد وخلقه وأوجه نشاطه هى الخبرات التى تقابلها فى المجتمع ، فإنهم مع ذلك لا يقتربون من النظرية السلوكية التى يقول بها واطسون ، والتى تود أن تثبت أن الإنسان ليس إلا نتاجاً للبيئة التى يعيش فيها ، ذلك أنهم يرون أن الأفراد يستجيبون لعوامل البيئة على أشكال متباينة مختلفة ، « فالإنسان لا يرد على الفعل فحسب ، بل هو يتخذ موقفاً فردياً لنفسه »[1] وإذا كانت البيئة ، حقاً ، هى العامل الفعال فى تكوين سلوك الفرد فإنها ليست البيئة فى صميمها الحقيقى ، بل بيئة الفرد كما يعيشها هو ، وكما يدركها إدراكاً ذاتياً . ثم يسرفون فى هذا الرأى ، على عهدنا بهم فيقولون إن ما ينشئ خلق الفرد ، ليس تأثير البيئة ، بل الموقف الذى يتخذه الفرد إزاءها .

---

(١) Dreikurs : *Introduction to Individual Psychology*, p. 4.